بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله مستحق الحمد والثناء، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء، وعلى آله وأصحابه الأوفياء.

أما بعد

فإن النثر الأدبى يزخر بألوان من الفنون التى تتطلب مزيدا من إماطة اللثام عنها، وتسليط الضوء عليها، وطرحها على مائدة البحث للتنقيب عن دفائنها، واستخراج كنوزها، ومن بينها أدب الابتهال والمناجاة الذى أهمل حينا وأغفل حينا آخر.

وكم وقعت عينى على نماذج رائعة من هذا الفن الراقى، ولكم كانت نفسى تتوق إلى دراسة هذا اللون، لكنى كنت أتهيب الإقدام ظنا منى – كما هو ظن طائفة من المعنيين بالأدب – أن الابتهال بمنأى عن التصنيف الأدبى، وأن مجاله الدراسات الإسلامية حتى وجدت قامتين أدبيتين وهما الأستاذ **الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجى، والأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى** – يرحمهما الله – وجدتهما يؤصلان لهذا الفن، ويدعوان إليه فى تضاعيف بعض مؤلفاتهما، حتى إن الأخير عاب على المهتمين بالأدب إهمالهم هذا اللون النثرى، وفسحهم المجال لنصوص هى أقل مغزى وأضأل معنى، ولربما تنفد فيها الأعمار.

ولما كان الابتهال مناجاة الأدنى ــ المخلوق ــ للأعلى ــ الخالق، كان لزاما أن يختلف عن مخاطبة الإنسان نظيره، حيث إن اتجاه العابد للمعبود ينحو منحى روحيا، فى محاولة للتخلص من جواذب الطينية الأرضية، وتشوفا إلى ارتقاء مدارج الروح العلوية.

على أن المبتهل قد يمنح من الإشراق مايفيض على نفسه، فيلهم من المعانى والأسرار ما يؤهله للولوج إلى ساحة القدس الأعلى، فتأتى عباراته وقد كسيت حلة البهاء.

على أية حال فإن هذا البحث يضطلع بعرض بعض نماذج مختارة من ابتهالات لا يجمعها عصر وإن روعى فيها الترتيب الزمنى، مع التحليق فى أجوائها رغبة فى الوقوف على أسرار فنيتها، واستكناه إيحاءاتها، واستظهار جماليتها من خلال دمج الطرح الموضوعى بالتحليل الفنى استشرافا لتلقى كل ما يتولد من رحم النص.

ويأمل كاتب تلك السطور أن تسفر الدراسة عن فن جدير بأن ترنو إليه عيون شداة الأدب الهادف، وأن تكون فتحا لباب قل طارقوه، وعز داخلوه، وأن تنهض دراسات لجمع هذا الحشد الهائل من النصوص، وأخرى لربطها بعصورها التى وجدت فيها، ودراسة مراحل تطورها،رغبة فى وضع لبنة فى صرح الأدب الشامخ والطود الأشم.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

تمهيد

إطلالة على أدب الابتهال.

تدور كلمة (ابتهل) فى اللغة حول معنى التضرع والمناجاة والاسترسال فى الدعاء [1]. وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله جل شأنه: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾[2].

والمباهلة تقتضى المفاعلة فاللغة تقول :

"باهلت فلانا مباهلة، إذا دعوتما باللعن على الظالم منكما، وتباهلا، وابتهلا: التعنا"[3] والابتهال يترجم حميمية العلاقة بين العابد والمعبود، فالمبتهل متضرع إلى مولاه، لائذ بجنابه، واقف على بابه، طامع فى عطائه، راغب فى الفضل، متبرئ من الحول والطول، مرتد لباس الخوف والذل، ملحاح فى الدعاء، مسرف فى الرجاء، مترقب فتح أبواب السماء، متلهف إلى تلبية النداء.

والابتهال مناجاة العابد معبوده، إذ يرى المخلوق الضعيف فى خالقه مصدر قوته، ويجد الذليل فى الاحتماء بسيده أساس عزه، ومبعث نشوته. ومما يزيد المبتهل إصرارا على استدامة المناجاة؛ أن المناجَى ــ جل فى علاه ــ لا يرد رجاء من رجاه، ويكشف السوء عمن احتمى بحماه، ويجيب المضطر إذا دعاه.

---

(١) المعجم الوسيط (بهل). ١ / ٧٦ ــ الطبعة الثالثة ــ ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

(٢) الآية ٦١ من سورة آل عمران.

(٣) أساس البلاغة (بهل) ــ ١ / ٧١ ــ ط / الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ سلسلة الذخائر (٩٥).

وإذا كان الأدب تعبيرا جميلا عن إحساس صادق وتجربة حيـــة؛ فـــإن فـــن الابتهال أحق ما يصدق عليه هذا المعنى، لأنه يعبر عن علاقة خاصة، تلك هى التى تكون بين العبد وربه، والتى تختلف اختلافا تاما عن علاقات المتماثلين من بنى البشر.

والابتهال أقرب إلى النثر منه إلى الشعر، وإن كان هذا لا يمنع مـــن وجـــود ابتهالات فى قوالب شعرية كما هو الحال فى بعض ضراعات رابعـــة العدويـــة، غيرأن هذا النمط الشعرى قد اندرج تحت ما يسمى بغرض "الحب الإلهى".

والمتصفح فنون النثر الأدبى يجد فيما بينهـــا "النـــصائح والحكـــم والأمثـــال والوصايا... "بينما لم يحظ فن الابتهال بدراسة وافية مع أنه موجود منذ عـــصر صدر الإسلام ، وقد أشار الدكتور محمد رجب البيومى (رحمه الله) إلى إغفـــال هـــذا اللون النثرى، وأرجع سر إهمال هذا الفن الأدبى الرائع، وسبب العـــزوف عنـــه إلى "أن مؤرخى الأدب العربى لم يفهموا أن معنى الأدب فى صميمه هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل، بل فهموا أنه فى الـــشعر مجموعـــة القـــصائد ذات الأغراض التقليدية، وفى النثر وسائل وخطب تشغل شئون الناس فـــى أحـــوالهم العامة، أما الابتهالات الصادقة فمما يجب أن يعكف عليه الوعـــاظ والنـــساك لا النقدة والأدباء، وهو فهم قد هوى بكثير من الروائع الملهمة إلى دياجير النسيان، بينما ارتفع بالهجاء والمجون والغزل بالمذكر وما شابه ذلك إلى مشارق الترديـــد والاحتفاء، وإلا فكيف جاز أن يبتدع محمد (ﷺ) فن الابتهال فى الأدب العربـــى، ويحاكيه عشرات من البلغاء على مد العصور الإسلامية، فيأتوا بذخائر غالية من أحاسيس الملهمين ثم لا يلتفت إلى تقديرها النقاد "[1]

---

(١) البيان النبوى ــ د / محمد رجـــب البيـــومى ــ ص ٢٠٨، ٢٠٩ ــ ط / دار الوفـــاء ــ الأولى ١٤٠٧هـــ ــ ١٩٨٧ م.

وقد يكون مرد تجاهل هذا الفن الأدبى إلى كونه لونا من ألوان الأدب الصوفى بدافع من التأثر بالنزعة الاستشراقية على حد قول الدكتور محمد خفاجى (رحمه الله):

"لقد تجاهل مؤرخو الآداب العربية هذا اللون الصوفى الروحى لأنهم ساروا على نهج المستشرقين فى دراسة الأدب العربى، والمستشرقون لا يحبون أن يكون هناك أدب إسلامى هادف، ومن ثم البيئات الأدبية الثابتة فى قلب النهضات العربية تتجاهل الأدب الصوفى لأنها ترنو بعيونها إلى الغرب لا إلى أنفسنا وبيئاتنا وتراثنا "(١).

وقد شايع المستشرقين فريق من الأدباء والنقاد ممن تجنوا على الأدب الصوفى لاقترانه فى أذهانهم بالتغزل فى الذات الإلهية، والإغراق فى طرح قضايا شائكة. وتتقاضانا الموضوعية أن نردد قول من قال:

"لماذا نقصر الأدب الصوفى على الغزل الرمزى والشطحات الفلسفية فلا نتحدث فى مجال الأدب لدى المتصوفين إلا عن ابن عربى وابن سبعين والبسطامى والحلاج لنغرق فى أوهام الحلول ووحدة الوجود والاتحاد، إننا نصارح بالحقيقة حين نعتبر أكثر ما قيل فى ذلك دخيلا على الأدب الصوفى الحقيقى، وهو الذى نبع من حقائق القرآن وتعاليم الحديث، ثم تمثل أول ما تمثل فى ابتهالات رسول الله "(٢)

---

(١) الأدب فى التراث الصوفى ــ د / محمد عبد المنعم خفاجى ــ ص ٧٣ ــ ط / مكتبة غريب.

(٢) البيان النبوى ص ٢٠٧.

وثمة سبب آخر فى إهمال فن الابتهال، هو أنه ربما وقعت أعين المتأدبين على بعض النماذج التى لا ترقى إلى مستوى الفنية، فجاء حكمهم على هذا النثر بأنه أقرب إلى الدعاء منه إلى الأدب؛ إذ الدعاء مجرد طلب لا يعنى قائله بجماليات الأداء، لأن المطلوب ــ جل فى علاه ــ لم يجعل تنميق الأسلوب من مقتضيات الإجابة، فحسب الداعى أن يخلص ولا عليه بعد هذا أن يتحدث بأى أسلوب شاء. "فالأديب الصوفى ليس متصنعا ولا متكلفا، إنه عاشق مخلص فى عشقه ينفس عن كوامن مشاعره ولواعجه بالكلمات، وهو على هذا ليس فنانا محترفا ولا هو باحث عن الفتوحات فى عالم الفن، ولا الشهرة والظهور بين أهله، ولكن يندفع للتعبير عن تجربته مضطرا فى كثير من الأحيان."(١)

ومما تجدر الإشارة إليه أن ثمة فرقا دقيقا بين الابتهال والدعاء؛ فالابتهال مناجاة، وبث الشكوى، وإقرار بالعجز، وإضفاء نعوت الثناء على الذات، أما الدعاء فطلب جلب الخير ودفع الضر ممن بيده الأمر، ويمكن القول بأن الابتهال دعاء ضمنى، والباعث عليهما التضرع واللجوء، ومن الابتهالات ما لا يكون ممزوجا بالدعاء الصريح، ومنها ما يكون ممهورا بالأدعية النصية، ويندرجان تحت ما يسمى بأدب المناجاة. وأغلب الظن أن المناجى أقرب قلبا وأعلق نفسا من الداعى الذى ربما لا يكون وكده إلا إجابة سؤله، أما المناجى فكلِف بلذة المناجاة، بغيته رضاء مولاه.

---

(١) الولاء والولاء المجاور بين التصوف والشعر–د/ عبد الحكم العلامى ــ ص ١٦، ١٧ ــ ط / الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ سلسلة كتابات نقدية شهرية (١٣٢) مارس ٢٠٠٣ م.

على أية حال "فإن ما لدينا من ذخائر الأدب الصوفى الصحيح بابتهالاته وأوراده وأحزابه واستغاثاته أوفى وأعظم وأبهر من أن يغفله التاريخ الأدبى فكيف أغفله مؤرخو الإسلام وقد بدأه رسول الله ؟" (١).

وفن الابتهال أقرب رحما إلى الأدب الصوفى الذى يتطلب مزيدا من إلقاء الضوء على إبداعات رواده بإماطة اللثام عن أرقى أنواع الأدب التى تهذب النفس وتسمو بالروح.

"إن الأدب الصوفى يقدم قبسا إلهيا يضيء جنبات القلوب والعقول والأرواح، ويمتزج بها امتزاجا ينسيها الدنيا ولو لفترة تستشعر فيها لذة الوصول والقرب، هذا القبس يمكِّن للمسلمين من أن يقيموا حضارة روحية معطرة الأنفاس، ترنو شامخة أمام كل الحضارات وتغرد بما تحمل فى حناياها من مقومات السعادة والخلود "(٢).

وأدب هذا شأنه حقيق بأن يطرح على مائدة البحث ليفيد منه الدارسون، ويأخذ مكانه بين فنون النثر الأدبى "وإنها لمأساة فى حق الأدب أن يظل هذا الإبداع الفنى الرفيع بعيدا عن الدارسين فى علوم النفس والتربية وعن الباحثين فى الأدب"(٣).

---

(١) البيان النبوى ص ٢٠٨.

(٢) الأدب الصوفى تاريخاً وفنا ــ د / عبد الوارث عبد المنعم الحداد ــ ص ١٣٥ ــ ط / مطبعة السعادة.

(٣) دراسات فى التصوف الإسلامى ــ ظلاله فى الأدب العربى ــ د / محمد عبد المنعم خفاجى ــ ٩٥/٢ نشر مكتبة القاهرة ــ ط / دار الطباعة المحمدية.

نصوص من الابتهالات.. عرض وتحليل.

إن أضرع وأصدق مبتهل فى تاريخ البشرية هو رسول الله (ﷺ) إذ لم يجد له من دون مولاه وليا ولا نصيرا ولا ملجأ ولا مغيثا، لا يرضى به بدلا ولا يبغى عنه حولا.

١ـ فمن ابتهالاته (ﷺ) فيما يرويه عبد الله بن جعفر :

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، إلى من تكلنى؟ إلى عدو يتجهمنى؟ أم إلى قريب ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أضاءت له السموات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحلَّ على غضبك، أو أن تـُنزل علىَّ سخطك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك "(١).

إعلان بالعجز، وإقرار بالضعف، استغاثة ملهوف، واستجارة لاجئ، وافتقار خاشع، ورغبة آمل، واقف بالباب، لائذ بالجناب، يقصر- من خلال الجار والمجرور (إليك) - الشكوى على من بيده وحده كشف الضر، ثم تلك التساؤلات الحائرة التى تبحث عن إجابات شافية، ثم إعلان الثقة الكاملة فى نصر الله، وعدم الاكتراث بأى مؤثر بشرى (إن لم يكن على غضب فلا أبالى) ثم يجيء الختام بالتبرؤ من الحول والطول مناسبا الافتتاح المتضمن الاعتراف بضيق ذات اليد، وإظهار الاستكانة، وتخلى الناصر.

إنها معان سامية صادرة من نفس مشرقة، قد أضاء إشراق الإيمان جنباتها، وأشرق نور اليقين فى سويدائها، ألهمها وحى السماء، وبارك سعيها مقلب

---

(١) رواه الطبرانى ــ المعجم الكبير.

القلوب، يحدو صاحبها الإخلاص، فيصدر فى كل فعل أو قول عن صدق ذاتى، فيبلغ أوج الفن.

"والعمل الفنى فى حقيقته نفسى داخلى، يقوم على الوجدان المواتى، ويتولى الترجمة عما تجده النفس، ومثل هذا لا يتحقق منه شيء إذا لم يقم على إرادة صادقة دافعة قوية، وليس كغيره من الماديات الآلية، التى قد تتم دون داع كاف وإرادة واضحة، ومتى أعوز المتفنن هذا التهيؤ النفسى الذى هو الإرادة فقد أعوزه كل شيء فى الفن، وجاءك بهذه الهنات التافهة الفاترة التى يغص بها الأدب العربى فى غير عصر من تلك العصور "(١).

ومن أوتى جوامع الكلم (عليه الصلاة والسلام) يُلهم عبارات قليلة المبنى عظيمة المعنى، بينها تناسق عجيب، فضعف البدن، وعجز العقل، وتجرؤ الخلق، وتربص العدو، أمور حين تتداعى على النفس تهلكها لولا أن تداركها عناية السماء التى تبدد حالك الظلمات فتستعذب العذاب من أجل إرضاء المحبوب، وتستغنى بأنس الخالق عن جفاء المخلوق.

٢ـ أما الإمام على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) الذى تربى فى بيت النبوة – وارتضع من أفاويق البلاغة النبوية، فلا عجب أن تأتى ابتهالاته نمطا من البيان لا يبارى، ونسقا من البلاغة لا يجارى، من مثل تضرعه فى خطبة له (كرم الله وجهه) إذ يقول:

"أمره قضاء وحكمة، ورضاه أمان ورحمة، يقضى بعلم، ويعفو بحلم، اللهم لك الحمد على ما تأخذ وتعطى، وعلى ما تعافى وتبتلى، حمدا يكون أرضى الحمد لك، وأحب الحمد إليك، وأفضل الحمد عندك، حمدا يملأ ما خلقت، ويبلغ ما أردت، حمدا لا يحجب عنك، ولا يقصر دونك، حمدا لا ينقطع عدده، ولا

(١) فن القول ــ أمين الخولى ــ ص١٠٠ ــ ط / مطبعة دار الكتب المصرية ــ ١٩٩٦م.

يفنى مدده، فلسنا نعلم كنه عظمتك، إلا أنا نعلم أنك حى قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم، لم ينته إليك نظر، ولم يدركك بصر، أدركت الأبصار، وأحصيت الأعمال،وأخذت بالنواصى والأقدام، وما الذى نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك، وما تغيب عنا منه، وقصرت أبصارنا عنه، وانتهت عقولنا دونه، وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه أعظم، فمن فرغ قلبه وأعمل فكره ليعلم كيف أقمت عرشك، وكيف ذرأت خلقك، وكيف علقت فى الهواء سمواتك، وكيف مددت على مور الماء أرضك، رجع طرفه حسيرا، وعقله مبهورا، وسمعه والها، وفكره حائرا"(١).

براعة استهلال؛ إذ أثنى على الله بما هو أهله، حيث استحقاقه الحمد فى عموم الأحوال،فى السراء والضراء، فى المنشط والمكره، فى العطاء والسلب. واستعمال أفعل التفضيل. (أرضى- أحب- أفضل) فيه دلالة على رغبة المبتهل الملحة فى تخطى مجرد الحمد الذى تلهج به الألسنة إلى حمد يرضاه الله لنفسه، ويحبه لذاته، ويوفق قائله للنطق به، وفى هذا الحمد المرضى عنه، والمحبوب لدى المحمود والمفضل عنده إجمال؛ تفصيله أنه يملأ ما بين السماء والأرض، دائم لا ينقطع، باق لا ينفد. ويبدو التأثر بالبلاغة القرآنية جليا فى عدة جمل متوالية (نعلم أنك حى قيوم لا تدركك سنة ولا نوم - لم يدركك بصر-أدركت الأبصار - أخذت بالنواصى والأقدام).

ولا شك أن قرن الشيء بعلته أدعى إلى الإقناع، وأوجب للإذعان، ومن ثم فإنه لا يفتأ يذكر موجبات الحمد من بديع الصنع، وإحكام الخلق، مما تعجز

---

(١) نهج البلاغة ــ شرح الشيخ محمد عبده ــ ٢ / ٥٥، ٥٦ ــ ط / الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ (الذخائر) ١٢٨ ــ ١٢٩ ــ ٢٠٠٤م.

العقول عن إدراك كنهه، وهى دعوة إلى تأمل الكون. وفى إضافة هذه العوالم (العرش ــ الخلق ــ السموات ــ الأرض) إلى كا ف الخطاب إشارة إلى تفرد الله بالملكية، واختصاصه بها، ونفيها عمن سواه.

إن تلك المعانى السامية منبعثة من حس مرهف، وصادرة عن شعور صادق " وليس الفن إلا الوسائل المختلفة لنقل هذا الشعور من نفس تبينته إلى نفس أخرى تأنس إليها وتألفها، وفى هذه الإبانة والتعبير الفنى لذة يتذوقها المترجم عن حسه وتنتقل عنه إلى من حوله من مشاركيه فى استعداده وطبعه"[١].

٣ـ فإذا انتقلنا إلى مبتهل آخر هو الإمام جعفر الصادق [٢](رضي الله عنه) سليل بيت النبوة، لمسنا شوقا عارما ما يتخلل كلمات واحدة من روائع ابتهالاته إذ يقول:

"أتراك تغل إلى الأعناق أكفا تضرعت إليك، واعتمدت فى صلاتها راكعة ساجدة بين يديك، أو تقيد بأنكال الجحيم أقداما سعت إليك، وخرجت من منازلها لا حجة لها إلا الطمع والرغبة فيما لديك، منًّا منك عليها سيدى لامنًّا منها عليك. بل ليت شعرى أتراك تصم بين أطباقها أسماعا تلذذت بحلاوة كتابك الذى أنزلت، أو تطمس بالعمى فى ظلم مهاويها أبصارا بكت إليك خوفا من العقاب وفزعا من الحساب، أما وعزتك وجلالك ما أصغت الأسماع حتى صدقت، ولا

---

(١) فن القول ص ٢٠٣.

(٢) هو جعفر الصادق بن محمد بن الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب. ولد بالمدينة المنورة سنة (٨٠هـ) كنيته (أبو عبد الله) وألقابه ثلاثة (الصادق ــ الفاضل ــ الطاهر) وأشهرها (الصادق)، مناقبه كثيرة ــ روى عنه جماعة من أعيان الأئمة.

نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار ــ مؤمن الشبلنجى ــ ص ١٦٠ ط / الحلبى ــ ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٤٨ م.

أسبلت العيون واكف العبارات حتى أشفقت، ولا تحركت الألسن ناطقة باستغفارها حتى ندمت على ما كان من زللها وعثارها "[1].

هذا نمط من الابتهال مغاير لما أثر من أنماط الابتهالات المعهودة التى تعتمد بصورة تقريرية مباشرة على خلع نعوت الثناء على الله (ﷻ)، فهو مشتمل على عدد من الاستفهامات المجازية التى تتعدد معها ضراعات المستغيثين، واستغاثات المنكسرين، ونداءات المكروبين. وفى كل مرة يمتزج الخوف بالرجاء.

والمبتهل إذ يرجو مولاه يريد أن تسلم جوارحه وتنجو من سوء المال، فالأيدى المغلولة إلى الأعناق إنما تكون لنفس استنكفت أن تذعن بالخضوع فلا يكون جزاء صاحبها إلا أن يسحب على وجهه نكاية وإذلالا، بينما هذه الأكف طالما رفعت وسخرها صاحبها لتحقيق الخشوع والخضوع فى الركوع والسجود.

والأقدام المكبلة بقيود العذاب هى التى سعت فى الأرض لتفسد فيها فلا يكون جزاؤها إلا التقيد بأنكال الجحيم بعد مطلق الحركة العابثة الهادرة، أما أقدام لا يحدوها فى سعيها إلا إرضاء مولاها فهى فى حل من هذا الوثاق.

ولما كان من المحتمل أن يوعز الشيطان إلى المهتدى فيلقى فى روعه الاعتزاز بما قدم من طاعة ــ ومن ثم الاغترار ــ احترس المبتهل بهذا الإقرار الصريح (منَّا منك عليها سيدى لا منَّا منها عليك) فإن يكن من هدى فمن الله.

والأسماع التى لم تجب داعى الله، وأعرضت عن دعوة الحق يحشر أصحابها عميا وبكما وصما، تلفحهم النار بلهيبها، لا يسمعون كأن فى آذانهم وقرا. أما

(١) البيان النبوى ص ٢١٢.

الأسماع التى تمتعت بلذيذ مناجاته ــ سبحانه ــ فقد كان نور القرآن حائلا بينها وبين النار، وستنتقل من سماع القرآن إلى سماع منزل الفرقان.

والأبصار المطموسة بالعمى قد امتلأت من المحارم، أما العيون الدامعة من خشية الله فهى فى مأمن من العذاب إذ لا تمسها النار. إن صم الأسماع وعمى الأبصار عذاب حسى يضاف إليه إيلام معنوى وهو حرمان الأسماع من لذيذ الخطاب، وحرمان الأبصار من رؤية الله، وهو مطمح طالما سعى من أجله المحبون، وأسهروا من أجله الجفون، وسكبوا من أجله العبرات، وحال هذا الأمل بينهم وبين ما يشتهون.

ثم ينتقل من خلال هذا القسم (وعزتك وجلالك) إلى الرجاء فى استدرار رحمة الله طامعا فى أن يكون من أولئك الذين كانت آذانهم واعية فصدقت ووعت ما سمعت، وكانت أعينهم دامعة حتى أشفقت، وعجت أصواتهم بالدعاء وشنفوا أسماعهم يترقبون الإجابة، ولهجت ألسنتهم بالذكر والاستغفار، وهم نادمون على تقصيرهم وتفريطهم فى جنب الله، فالخوف من عذاب الله دأبهم، والطمع فى رحمة الله ديدنهم.

والمبتهل حتى يصل إلى هذا التأثير بهذه الكلمات الرقراقة قد صفت نفسه حتى سمت "وهو لا بد مرتب معانيه، فتمثل لها صورة قد تنبثق فى نفسه انبثاقا، وتلوح له فى الأضواء والأنوار لياحا، دون ترتيب لذلك وتدبير له، إلا أنه كان بلا شك، وحينما كان يقصد إلى تعبير قد تذوق ألفاظا وتخير حكمة، وآثر تركيبا على تركيب، وفضل لونا على لون "[١]

(١) فن القول ص ٢٠٣.

أما الأدب الصوفى فقد سجل لنا فى هذا الميدان الرحيب قطعا نثرية مفعمة بلواعج الشوق وحرارة المعاناة، وتتعرض لخطرات القلب ونوازع النفس البشرية وأسرارها "فالحديث عن أهواء النفس الظاهرة والخفية وشهوات القلب الواضحة والمضمرة، ونوازع الخير والشر وما يترقرق بينهما من صور وألوان تمتزج حينا وتفترق أحيانا تراث صوفى عجزت الفلسفة قديمها وحديثها عن أن تنازعه ألويتها، وهو وحده الذى امتلك الإبداع الأعلى الذى صنع الشخصية الخلقية بصيغته، وأسمعنا فى جرسها ألحان الملائكة أورادا وتسبيحا، وأنجب لنا الصور الإيمانية المتعالية فى مثالياتها الصاعدة إلى الأفق الأعلى الذى تلتمع فيه البروق، وتفنى على حوافيه ماديات البشرية وأهواؤها، وإن كان هذا الأدب الشامخ لم يأخذ مكانته فى الدراسة وحظه من البحث حتى اليوم، وبذلك حيل بين نهضتنا وبين أنبل ما صنعت الأقلام الإسلامية، ففقدنا بذلك الذخيرة الحية التى نخوض بمادتها معركة الحياة ".[١]

وإذا كانت النفس الإنسانية معقدة فى تركيبها، يصعب فك رموزها وحل ألغازها "فالأدب الصوفى فى تجاربه النقية هو وحده الذى يعطى الصورة الصحيحة للنفس الإنسانية ويصدق فى حديثه عنها وعن صاحبها ويصورها فى دقة ووضوح"[٢].

---

(١) الأدب فى التراث الصوفى ــ د / محمد عبد المنعم خفاجى ــ ص ٧٢ ط / مكتبة غريب.

(٢) الأدب الصوفى تاريخا وفنا ص ٢١١.

٤ـ ومن ابتهالات ذى النون المصرى (ت ٢٤٥هـ) [١]:

"إلهى ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا نعقة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على أن ليس كمثلك شيء،وأنك غالب لا تغلب، وعالم لا تجهل، وحليم لا تسفه، وعدل لا تجور، وصادق لا تكذب. إلهى فإنى أعترف بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دل عليه فعلك؛ فهب لى طلب رضاك برضاى.

إلهى من لم ينسه جميع الهموم رضاه عنك، ولم يلهه عن جميع الملاهى تعداد آلائك، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك، كانت حياته ميتة، وميتته حسرة، وسروره غصة، وأنسه وحشة.

إلهى عرفنى عيوب نفسى، وافضحها عندى لأتضرع إليك وأبتهل بين يديك خاضعا ذليلا فى أن تغسلنى منها، واجعلنى من عبادك الذين شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم، تجول فى ملكوتك، وتتفكر فى عجائب صنعك لترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك، قد ألبستهم خلع محبتك، وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك.

---

(١) هو أبو الفضل ذو النون المصرى، واسمه ثوبان بن إبراهيم، وكان أبوه نوبيا، وكان رجلا نحيفا تعلوه حمرة، ولما توفى بالخربة ٢٤٥هـ حمل فى قارب مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته، ورأى الناس طيورا خضرا ترفرف على جنازته حتى وصل إلى قبره.

الطبقات الكبرى ــ الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ــ تح / عبد الرحمن حسن محمود ١٦٢/١ــ نشر مكتبة الآداب ــ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

إلهى لا تترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته، ولا حاجزا إلا رفعته، ولا وعرا إلا سهلته، ولا بابا إلا فتحته، حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك، وتذيقنى طعم محبتك، وتبرد بالرضا منك فؤادى، وجمِّع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختاره، وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك، ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك.

إلهى كيف أسترزق من لا يرزقنى إلا من فضلك، أم كيف أسخطك فى رضى من لا يقدر على ضرى إلا بتمكينك؟ فيا من أسأله إيناسا به وإيحاشا من خلقه، ويا من إليه التجائى فى شدتى ورجائى ارحم غربتى، وهب لى من المعرفة ما ازداد به يقينا، ولا تكلنى إلى نفسى الأمارة بالسوء طرفة عين"[1].

يتخذ المناجى من مشاهد الطبيعة الحية دليلا على قدرة الخالق ووحدانيته فى مهارة لغوية من خلال الدقة فى استعمال المفردات التى تنسجم مع كل جنس من أجناس هذا الكون (صوت الحيوان ــ حفيف الشجر ــ خرير الماء ــ ترنم الطائر ــ دوى الريح ــ نعقة الرعد) فهى أصوات متباينة لا يدركها إلا من تمعن وأصاخ السمع على نحو ما عبر بقوله (أصغى)، ويعقب الإصغاء يقين بأنه ــ سبحانه ــ ليس كمثله شيء، ثم اعتراف يتلوه شهادة. ذلك هو **المشهد الأول** من مشاهد تلك اللوحة الفنية الرائعة.

ثم يأتى **المشهد الثانى** ليذكر النفس البشرية بعظيم صنع الله، وتعداد نعمائه وآلائه، وهذا خليق بأن يقطع المخلوق كل ما من شأنه أن يحول بينه وبين خالقه

---

(١) العالم العابد العارف بالله ذو النون المصرى ــ د / عبد الحليم محمود ص ١٥٠، ١٥١ ــ ط / دار الرشاد ــ الثانية ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤ م.

جل وعلا، إذ البعد عن الله غربة، والأنس بغيره وحشة، ولطالما سعى المبتهل إلى الائتناس بالله.

"والأنس سرور القلب بشهود جمال الحبيب من غير استشعار رقيب بل مع الغفلة عن الماضى والمستقبل، وهذه الحال توجب انتعاش المحب وفرحه بطيب عيشه وصفاء وقته، فإنه بما فيه من البهجة والطرب الروحانى يخيل إليه أن جميع الكائنات تشاركه فى صفاء وقته وطيب حاله، فهو يشاهد حالته تلك فى تفتح كمام النوار، وتبلج ثغور الأزهار، وتوريد خدود النعمان وانعطاف قدود البان، ولطافة مر النسيم، وطلاقة مرأى وجه النسيم "(١).

وحتى يتحقق الأنس يطلب المبتهل من مولاه أن يطلعه على عيوب نفسه فذلك أجدر أن يكون خاضعا ذليلا؛ إذ الصراع الداخلى بين منازع الخير ونوازع الشر قائم فى نفس الإنسان.

ولما كان الإخلاص سر القبول فإن المبتهل يتضرع إلى الله من خلال هذه الاستعارة البيانية (ألبستهم خلع محبتك، وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك) كأن محبة الله لا تزايل المحبوب وإنما تحيط به إحاطة الثوب بلابسه، فكما لا يترك الثوب جزءا عاريا فالمحبة تطوق المحبوب حتى ليستحى أن تظهر منه عورة معنوية، ولا يجمل لباس المحبة إلا بخلع المحب لباس التزين لغير المحبوب جل فى علاه ـ.

والمبتهل قد جعل الجمع (خلع) فى مقابلة المفرد (لباس) قصدا منه إلى تحصين النفس بكل أسباب المحبة الإلهية حتى تقوى ويضعف أمامها ما قد

---

(١) مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب ـ ابن الدباغ ـ تح / هـ ريتر ـ ص ٧٠١ ـ ط / دار صادر ـ بيروت.

توعز به النفس الأمارة من رغبة فى إرضاء المخلوق لا الخالق، وهناك ملمح آخر أن القاصدين مرضاة ربهم محاطون بمنح شتى ظاهرة وباطنة، بينما المتملقون فقراء النفوس يستترون بهذا الثوب القشيب حتى إذا كوشفوا ظهر عوارهم، وبدت سوءاتهم.

أما **المشهد الثالث** فمرتبط بالمشهد الثانى، فإذا كان المبتهل يرجو فى المشهد الثانى تحقيق الوصول فإنه فى المشهد الثالث يطلب إزالة الحواجز، وتنحية العلائق التى تحول بينه وبين تحقيق مأربه من إقامة قلبه بباب مولاه. وتظهر الدقة اللغوية فى استعمال الهتك للحجاب لأنه سد منيع وحصن يفصل المحب عن محبوبه، وكذا استعمال الرفع للحاجز، والتسهيل للوعر،والفتح للباب.

وأغلب الظن أن هذه العقبات الكأداوات ترمز إلى مراحل النفس البشرية التى تمر فى طريق الوصول إلى الله بعوائق وحواجز وحجب؛ من أمر بالسوء، وإخلاد إلى الدعة، ويأس من القرب، واستسلام لغوائل الشيطان، ووقوع فى أحبولة الهوى. فإذا ما تغلب العبد على هذه المآزق غدا مطلوبه موافقا مطلوب محبوبه، واختياره نابعا من اختيار محبوبه.

"إن الإنسان دائما فى جهاد النفس بقوة عقله، لأنه محتاج إلى ردعها به، وإلى ضبطها ومنعها من شهواتها الردية حتى لا يصيب منها إلا بمقدار ما يطلقه العقل ويحده لها، وما يرسمه ويبيحه إياها، ومن لم يقم بهذا الجهاد دائما مدة عمره فليس ممن له حظ فى الإنسانية بل هو خليع كالبهيمة المهملة التى لا رقيب عليها من العقل، وإذا انحط الإنسان عن رتبته العالية إلى رتبة ما هو

أدنى منه فقد خسر نفسه ورضى لها بآخر المنازل هذا مع كفره نعمة الله، ورده الموهبة التى لا أجل منها، وكراهيته جوار بارئه، ونفوره من قربه "[١]

ويأتى **المشهد الرابع** مصدرا بهذا الاستفهام المجازى الذى يحمل فى طياته إقرارا بحتمية السعى للكسب مع تمام اليقين أن جلب الخير ودفع الضر بيد الله. وفى ختام المناجاة يطلب المبتهل ما يتحقق به اليقين وهو المعرفة وألا يكله ربه إلى نفسه.

٥ـ ومن مناجاة يحيى بن معين الرازى (ت ٢٥٨هـ): [٢]

"إلهى إذا قلت لى فى القيامة عبدى ما غرك بى، أقول : سيدى برك بى، وإن أدخلتنى النار بين أعدائك لأخبرتهم بأنى كنت فى الدنيا أحبك لأنك مولاى، ومن جميع الأشياء مغناى. اللهم إن نجيتنى نجيتنى بعفوك، وإن عذبتنى عذبتنى بعدلك، رضيت ما بى لأنك ربى وأنا عبدك. إلهى تعلم أنى لا أقوى على النار، وأنا أعلم أنى لا أصلح للجنة، فما الحيلة إلا عفوك".

"اللهم أتقرب إليك، وبك أدل عليك، وحجتى نعمك لا عملى، ولا أظنك تحاسب غدا بعدلك من غشيته اليوم بفضلك، وعفوك يستغرق الذنوب، ورضوانك يستغرق الآمال، ولولا أنك بالعفو تجود ما كان عبدك بالذنب يعود"

---

(١) الهوامل والشوامل ــ أبو حيان التوحيدى ــ تح / أحمد أمين ــ السيد الصقر ص ١٧ – ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ سلسلة الذخائر (٦٨).

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى الواعظ، نسيج وحده فى وقته، له لسان فى الرجاء خصوصا،وله كلام فى المعرفة، خرج إلى بلخ وأقام بها مدة، ورجع إلى نيسابور ومات بها (٢٥٨هـ).

الرسالة القشيرية ــ الإمام القشيرى ــ ص ١٧ ــ ط / الحلبى ــ الثانية ١٣٧٩هـ ــ ١٩٥٩ م.

"إلهى وسيدى ومولاى ومن جميع الأشياء مغناى، ضيعت نفسى بالذنوب فردها علىَّ بالتوبة، أنت تعلم أن الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم الأكرمين فاعف عنى. إلهى أنت تعلم أن إبليس عدو لك ولى، وليس شيء أنكى لكمده وأقطع لكيده من غفرانك فاغفر لى يا أرحم الراحمين" (١)

يتخيل المناجى حوارا دار بينه وهو (عبد) وبين ربه وهو (سيد)، وفى إضافة العبودية (عبدى) إشعار بمدى الحنو الذى يخلعه الرب على المربوب، على الرغم من جرأة العبد على سيده ومولاه، لكن حلم الرب يغلب جهل العبد. والمناجى لا يرضى عن محبوبه بدلا، ومحبته لا تنفك عن محبوبه حتى ولو لم يبلغه عمله شرف القرب ولذة المناجاة (رضيت ما بى لأنك ربى وأنا عبدك). ويقدم المبتهل المحب صفة الجمال (الرحمة) التى من موجباتها تحقيق النجاة على صفة الجلال (العذاب) فيقول (إن نجيتنى نجيتنى بعفوك، وإن عذبتنى عذبتنى بعدلك) هذا فى جانب الله. أما فيما يتعلق بعمل العبد فإنه يقدم صفة الجلال؛ فهو لا يقوى على النار،لأن عمله يتقاصر، وما كسبت يداه مفض إلى العثار. ويبلغ العجز مبلغه لدى العبد حين يقر بضعفه إذ يرى هلاكه متحققا وليس له حيلة إلا عفو خالقه، ويأتى هذا الإقرار بأسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء.

وفى الفقرة الثانية يتقرب المبتهل إلى مولاه، والتقرب إلى الله دأب المحبين، يستنطقون آثاره، ويعددون أنعمه وآلاءه، ولا يرون العدل ميزانا لمن عوِّد

---

(١) الصوفية فى إلهامهم ــ حسن كامل الملطاوى ١٣٣/٢ ــ ١٣٤ ــ ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ الثانية ــ ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢ م.

الفضل، فإذا كانوا قد نعموا بالفضل فى الدنيا حتى شغلوا عن المتفضل ــ سبحانه ــ فهم أحوج ما يكونون إليه فى الآخرة ساعة تشتد الكرب، وتبحث النفوس عن الخلاص، فالذنوب مهما كثرت إذا قيست بعفو الله تضاءلت، والآمال مهما تعددت فرضوان الله يسعها.

ويحاول المبتهل أن يجد لنفسه سبيلا إلى جنب عفو الله، فيعلن أنه لولا التكرم بالعفو ما كانت هناك معاودة للذنب، وما الظن برب يحب المذنبين الذين يقع منهم الذنب بعد الذنب، ثم تكون منهم التوبة المرة تلو المرة.

وفى الفقرة الثالثة يعترف المبتهل بجرمه فى حق نفسه التى ضيعها بكثرة ما اقترف، وكأنى به يرى أن النفس المخلوقة لله تسلمها الإنسان طاهرة، وكأن الأولى به أن يحفظها لمالكها على الوجه المرضى، وهو يطلب ردها من غافر الذنب وقابل التوب. والنفس فى إغراقها فى الذنوب ضالة أعيت صاحبها فى البحث عنها، والتوبة تعيد النفس إلى صوابها، وتجعل صاحبها فى نشوة من عثر على مفقود بعد طول غياب. وهو لا ينى يقدم مسوغات استحقاقه عفو مولاه، تارة بالثناء على من بيده الأمر (وأنت أكرم الأكرمين فاعف عنى) وأخرى بالاعتراف بالوقوع فى قبضة عدو لدود متربص به (إبليس عدو لك ولى).

ثم يضع المبتهل نفسه بين أمرين: المؤاخذة أو المسامحة. وإلحاحا منه فى الطمع فى رحمة الله فإنه يرجو الثانية لأنها مقدمة على الأولى (سبقت رحمتى غضبى) فضلا عن أن فيها خزيا لعدو قد سبق عليه القول بالطرد من رحمة الله (وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين). وما دامت لا تنفعه ــ سبحانه ــ طاعة، ولا تضره معصية، فالرجاء فى مغفرته أمل كل راغب، ومطمع كل آيس، وهل

هناك أرحم ممن تجاوز عمن أهلك نفسه باتباع هواها، واستجابته لعـــدو الله ؟ لا يقدر على هذا إلا من وسعت رحمته كل شيء.

٦ـ ومن ابتهالات معروف الكرخى (ت ٢٠٠هـ):[١]

"سيدى بك تقرب المقربون فى الخلوات، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذى ســجد لــك سواد الليل وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزخار، والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار لأنك العلى القهار"[٢].

اعتراف بالعبودية المطلقة دل عليها البدء بقوله (سيدى)، ثــم ذكــر أعلــى الأجناس إقرارا بعظمة الله وهم المقربون من عباد الله الذين لا يعدلون بلذة قربه أية لذة، ولا سيما حين ينفرد الحبيب بمحبوبه، ويخلو صاحب الهوى بمن يهوى.

وفى تقديم الجار والمجرور (بك) حصر الأنس به وحده دون ســواه، فكــل قرب لغيره بعد. "وحال القرب يقتضى حال المحبة، وهى تتولد من نظر القلــب إلى الله ــ (ﷻ) جلاله وعظمته وعلمه وقدرته ــ فطوبى لمن شرب كأسا مــن محبته، وذاق نعيما من مناجاته، فامتلأ قلبه حبا فطار بــالله طربــا، وهــام بــه اشتياقا، ليس له سكن ولا مألوف سواه، فهو محب خرج من رؤية المحبــة إلــى المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب، ولم يكــن هــو

---

(١) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى، من جملــة المــشايخ المــشهورين بالزهــد والورع والفتوة، وهو من موالى على بن موسى الرضا، صحب داود الطــائى، ومــات ببغداد ودفن بها سنة مائتين.

الطبقات الكبرى١/١٦٦

(٢) دراسات فى التصوف الإسلامى د / خفاجى ١/١٣٨.

بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا بلا علة، والمحبة تقتضى الذكر، فلا يزال المحب يذكر ربه ويدخل الخلل فى ذكره لنفسه حتى يصير الغالب عليه ذكر ربه، وصار كالغافل عن نفسه، ثم يعقل عن ذهوله عن نفسه، وينسى باستيلاء ذكر ربه عليه جميع الأحاسيس فيقال فنى عن نفسه ويقال فنى بربه، وهو هنا يكون مخطئا عن نفسه، ممحوا عن جملته، فانيا عن كله."[1]

وهناك عوالم أخرى تسبح بحمد الله، فإذا كانت أقوى الكائنات البحرية (الحيتان) تقر بعظمة الله فما دونها داخل فى زمرة التقديس والتعظيم، ولا يقتصر التعظيم على من استقر فى أعماق البحار، وإنما يتعداه إلى تلك الأمواج المتلاطمات. واستعمال هذا الفعل (تصافق) الدال على التفاعل يناسب الحركة الهادرة من تدافع الأمواج، وهذا التلاطم مشهود تدركه الأبصار، دلالة على استدامة تسبيح البحار. وقد تنامت إلى مخيلة المبتهل صورة الليل وهو يرخى سدوله، وصورة النهار وهو يكشف ستر الليل، ويرفع ظلام الحلكة.

ويستعرض المبتهل حركة الكون الدائبة فى التسبيح والتقديس بدقة متناهية وإحكام متقن (فكل شيئ عنده بمقدار). وختم الابتهال بصفتى العلى القهار يناسب ما سبق ذكره؛ لأنه لا يسخر هذا الكون إلا من علا فقهر، فكل المخلوقات قهر عظمته.

---

(١) التصوف الإسلامى ــ طه عبد الباقى سرور ــ ص ١٢٢ ــ ط / دار نهضة مصر ــ د.ت.

٧ ـ ومن ابتهالات الإمام الجنيد(ت ٢٩٧هـ):[١]

"إلهى وسيدى ومولاى، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك؟ ومن أوسع منك رحمة لمن اتقاك وقصدك، ومن أسرع منك عطفا ورأفة لمن أرادك وأقبل على طاعتك ؟ فكلهم فى نعمائك يتقلبون، ولك بفضلك عليهم يعبدون، سرت همومهم بك إليك، وانفردت إرادتهم لديك، وأقبلت قلوبهم بك عليك، وفنيت حظوظهم من دونك، واجتمعت لك وحدك، فهم إليك فى الليل والنهار متوجهون، وعليك فى كل الأحوال مقبلون، ولك على الأحوال مؤثرون".[٢]

يستهل الجنيد ضراعته بتلك الاستفهامات المجازية مضمنا مناجاته بعض المعانى القرآنية مثل قوله: (من أحسن حكما لمن أيقن بك) فهو مضمن معنى قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [٣] وقوله: (ومن أوسع منك رحمة لمن اتقاك) مضمن معنى قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [٤]. أما قوله: (ومن أسرع منك عطفا ورأفة لمن أرادك وأقبل على طاعتك) فهو بيان لحميمية العلاقة بين الخالق والمخلوق،

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، كان أبوه يبيع الزجاج، وكان فقيها على مذهب أبى ثور، وكان يفتى وهو ابن عشرين سنة، صحب خاله السرى السقطى والحارث المحاسبى ومحمد بن على القصاب مات ببغداد (٢٩٧هـ).

ينظر الطبقات الكبرى ١/ ١٨٩ ــ والرسالة القشيرية ص ٢٠.

(٢) الصوفية فى إلهامهم ٣٤٢/٢.

(٣) من الآية ٥٠ من سورة المائدة.

(٤) من الآية ١٥٦ من سورة الأعراف.

وقد دل على شمول نعمه جميع خلقه من أطاع ومن عصى (فكلهم فى نعمائك يتقلبون).

ومن أبرز نعمه أن وفق الطائعين لعبادته بمحض فضله سبحانه (ولك بفضلك عليهم يعبدون)، وفى تقديم الجار والمجرور (لك) دليل على اختصاصه وحده بالعبودية. وفى الجملة الاعتراضية (بفضلك عليهم) احتراس أن يتوهم أن التوفيق إلى الطاعة من فعل العبد، وتأكيد على أنه من فضل الله. ومن مقتضيات العبادة صدق التوجه وسلامة القصد وإقبال القلب بكليته على الله.

ويأتى الترتيب فى رصف العبارات متوافقا مع مراحل الوصول إلى الله، فمن كان همه إلهه جعله مراده، وتبع هذا إقبال قلبه على ربه، لأن القلب محل النظر، ومن كان هذا شأنه أفنى نفسه فى إرضاء محبوبه، وهانت عنده حظوظ الدنيا، وجمع أمره حتى عاين لذة القرب فلهج لسانه بالذكر، وغدا فى ليله ونهاره خاشعا، وإلى إحسان خالقه راميا، وبمعيته مستأنسا، ولشهود حاله مؤثرا. وتقديم الجار والمجرور فى صدر كل الجمل يدل على تفرد المعبود بكمال الإقبال،والبذل فى مرضاته كل مرتخص وغال "ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم، وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهرى إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت الروح وغلب سلطانه وتحدد نشوُّه، وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال فى نمو وتزيد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما".[1]

---

(١) المقدمة ــ ابن خلدون ــ تح / د. على عبد الواحد وافى ــ ٣ / ٩٩٠ ــ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٦م.

ومن ضراعات الإمام الجنيد (رضي الله عنه) :

"أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع اشتدت إليك فاقته، وأنزل بك على قدر الضرورة حاجته، وعظمت فيما عندك رغبته، وعلم ألا يكون شيء إلا بمشيئتك، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك، فكم من قبيح قد سترته، وكم من بلاء قد صرفته، وكم من عثرة قد أقلتها، وكم من زلة قد سهلت بها، وكم من مكروه قد رفعته، وكم من ثناء قد نشرته، أسألك يا سامع أصوات المستغيثين، وخفى أضمار الصامتين، وأنت المطلع فى الخلوات على أفعال المتحركين، وناظر إلى مادق وجل من آثار الساعين، أسألك ألا تحجب بسوء فعلى عنك صوتى، ولا تفضحنى بخفى ما اطلعت عليه من سرى، ولا تعاجلنى العقوبة على ما علمته من خلواتى، وكن بى فى كل الأحوال رافقا، وعلىَّ فى كل الأحوال عاطفا.. "(١)

يصدر المبتهل مناجاته بالإقرار بالافتقار إلى من يملك الإجابة، وكلما كان المفتقر مقرا بعجزه وضعفه كان ذلك أدعى للقبول وأرجى للإجابة، وما كان للعزيز الرحيم أن يعرض عن (خاضع خاشع ــ متذلل ــ متواضع ــ ضارع)، وتعداد صفات العجز عند المخلوق يستمطر صفات الجمال، ويتقى صفات الجلال. ثم يقابل المبتهل بين مؤهلات ضعف المخلوق وموجبات قوة الخلق إمعانا فى استدرار فيوض الرحمات فيستخدم (كم) التى تفيد التكثير، و (من) التى تفيد الابتداء فيما يتعلق بالمخلوق فى مقابلة (قد) الداخلة على الفعل الماضى بما تفيده من معنى التحقيق فى جانب ما يتعلق بالخالق فى إقالة العثرات والصفح عن الزلات لبيان عظيم امتنان الله على عبده، حتى ما يعرف

(١) الصوفية فى إلهامهم ٢/ ١٩٤، ١٩٥.

عن العبد من طيب الذكر وجميل السيرة مرده إلى الله الذى وفق إلى الخيـــر، لا فضل فيه للعبد، فالمتفضل بستر القبيح ممتن بنشر الثناء.

وينوع المبتهل فى أساليب المناجاة فى نسق بديع؛ فمرة يستخدم أسلوب النداء ليقرر حقيقة المنادى حيث يجيب المضطر إذا دعاه، ويعلم السر وأخفى، ومـــرة يستفتح بالجملة الاسمية التى تفيد الثبوت (وأنت المطلع)، كما أن البدء بـــضمير الخطاب مشفوعا باسم الفاعل المعرف دال على تأكيد اختصاص المناجَى ــ جل وعلاــ بمعرفة أفعال العباد فى خلواتهم، كما أفاد شمول علم الله وإحاطته عـــن طريق ذكر المتضادين (ناظر إلى مادق وجل).

ثم يخلص المبتهل من الثناء إلى الرجاء ملبسا دعاءه ثوب الخشية، وأخـــشى ما يخشاه المقربون حجبهم عن مناجاة محبـــوبهم بجريـــرة ســـوء فعلوهـــا، أو افتضاحهم بمكنون سر لا يعلمه إلا خالقهم، ولما كان المحبـــــوب يغـــــــار أن يـــــكون فى قلب محبه سواه، وكان ذلك مدعاة إلى الإعراض، ناسب ذلـــك أن يطلب المحب عدم تعجيل العقوبة طمعا فى وصل المحبوب، وإمهالا للمحب كى يثوب إلى رشده. ويختم ابتهاله بطلب الرفق والعطـــف، فرفـــق الـــسيد بعبـــده، وعطفه عليه من مقتضيات الربوبية.

٨ـ ومن ضراعات أبى حيان التوحيدى (ت ٤٠٠ هـ) [١]:

---

(١) هو أبو حيان على بن محمد بن أحمد بن العباس البغدادى المعروف بالتوحيدى، شيرازى الأصل، وقيل واسطى، وقيل نيسابورى، فيلسوف متصوف معتزلى، نعته ياقوت الحموى بشيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة وإمام البلغاء، تفقه على القاضـــى أبـــى حامد المروروزى، ولد فى شيراز أو نيسابور، وأقام ببغداد مدة ثـــم انتقـــل إلـــى الـــرى فصاحب ابن العميد والصاحب بن عباد فلم يحمـــدهما وصـــنف فيهمـــا كتـــاب (مثالـــب الوزيرين) ومات سنة ٤٠٠ هـــ عن نيف وثمانين عاما، وقد أحرق كتبه قبل موته.
الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ــ د / فاطمـــة محجـــوب ــ ٩٩/١٥ ــ ط / دار الغـــد العربى.

"اللهم اجعل غدونا إليك مقرونا بالتوكل عليك، ورواحنا عنك موصولاً بالنجاح إليك، ولا تخلنا من يد تستوعب الشكر، ومن شكر يمترى خلق المزيد، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترض، وصنع يفوق ذرع الطالبين، اللهم احجز بيننا وبين كل ما دل على غيرك، انقلنا من مواطن العجز مرتقيا بنا إلى شرفات العز، فقد استحوذ الشيطان، وخبثت النفس، وساءت العادة، وكثر الصادفون عنك، وقل الداعون إليك، وقل المراعون لأمرك، وفقد الواقفون عند حدودك، وخلت ديار الحق من سكانها، وبيع دينك بيع الخلق، اللهم فأعد نضارة دينك، وامدد علينا ظل توفيقك. اللهم بك نعتز كما أنا بغيرك نذل، وإياك نرجو، كما أنا من غيرك نيأس. اللهم إنك تملك العالم كله وما بعده وما قبله، ولك فيه تصاريف القدرة وخفيات الحكمة ونوافذ الإرادة، ولك فيه مالاندريه مما تخفيه ولا تبديه، جللت عن الإجلال، وعظمت عن التعظيم، فكن عند ظننا بك، وحقق رجاءنا فيك، فما خالفناك جراءة عليك، ولا عصيناك تقحما فى سخطك، ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك، ولكن غلبت علينا جواذب الطينة التى عجنتنا بها، وبذور الفطرة التى أنبتنا منها، فلسنا ندعى حجة، ولكن نسألك رأفة، إنك أهل ذلك وأنت على كل شيء قدير"(١)

تمثل حياة الإنسان غدوة، وشأن الغادى أن يدركه الرواح، والرواح عند المبتهل يشير إلى الحياة الأخرى. ولما كان السعى فى الأولى مقرونا بالتوكل على الله؛ فإن ذلك يسلم إلى تحقيق النجاح فى الآخرة باجتياز العقبات. ولما كان الشكر يستدعى رفع أكف الضراعة ثناء على الله بما أولى من النعم؛ فإن الرجاء هنا متضمن استدامة التوفيق إلى شكر المنعم ــ جل فى علاه ــ وكذا الاستكثار

(١) دراسات فى التصوف الإسلامى د / خفاجى١/ ١٤٨، ١٤٩.

من الشكر الذى يجلب المزيد من النعم (﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ ﴿٧﴾﴾ [1].

ومن فيوضات الله على عباده أنه يعطى قبل أن يسأل، ويمنح فوق ما سُئل، لأن خزائنه لا تنفد. ولما كان الالتفات إلى الخلق يحول دون شهود منة الخالق؛ فإن المبتهل يرجو رفع الحجب وتنحية العوائق، فالركون إلى الخلق عجز، والارتقاء إلى الخالق عز، ووجود الحواجز بين العبد وربه إنما هو من فعل الران الذى يتداعى على القلب من استحواذ الشيطان وخبث النفس وسوء الطوية. أما حال المخلوقين مع الخالق فمعروض بتسلسل منطقى، فكثرة المعرضين عن الله تقابلها قلة المقبلين عليه، وعلى الرغم من قلة الداعين إليه فإن المراعين لأمره منهم قليل، أما الحافظون لحدود الله، والوقافون عند شرع الله، والملتزمون بهدى السماء فنزر يسير وهم مفقودون، بيد أن المفقود يُطمع فى البحث عنه، وقد يعثر عليه بعد طول بحث وتنقيب وعناء، وذلك لئلا يغلب على المرء نزعة اليأس.

وما دامت ديار الحق قد خلت من سكانها؛ فإن شأن الدين يهون فى قلوب المنتسبين إليه حتى يباع بعرض من الدنيا فلا يتمسك به أهله وإنما يبيعونه بيع (الثوب الخلق). وبائع الثوب القديم يرضى منه بالقليل. وفى تصوير بيع الدين ببيع الخلق دلالتان : الأولى أن الدين صار من الهوان بحيث يباع كما يباع الثوب القديم، فأصبح سلعة تباع وتشترى، والأصل أن يكون غير قابل للمساومة لأنه مناط شرف الإنسان وأصل سعادته، وإذا كان الإنسان لا يبيع نفسه فدينه

(١) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

أعز عليه فلا ينبغى أن يفرط فيـــــه، ومن صور بيع الدين الاعتداء على حدود الله، والإعراض عن هديه، والإجتراء على محارمه.

أما الدلالة الثانية فهى أنه يرضى من الدين بالدون لعدم جدواه، فيبيعه بأبخس الأثمان. ولما كان الدين يخلق فى قلوب بعض الناس حتى صور بالثوب الخلـــق احتاج إلى تجديد وحيوية (اللهم فأعد نضارة دينك) وهنا ملمح فالدين نبتة فـــى قلب المسلم كالبذرة التى تـــلقى فى الأرض، فإذا كانت الحبة تتطلب سقيا ورعيا حتى تنضج وتثمر وتؤتى أكلها، فالإيمان بحاجة إلى رعاية وتنمية عن طريـــق الاستزادة من مناهل الخير، وقد يعرض للعود شيء من الذبول بسبب إغفـــال أو إهمال فيحتاج إلى مزيد عناية حتى تعود إليه نضرته؛ فالدين قد يعتريه شيء من الفتور أو الترهل بسبب نزوات أو شهوات، فيتطلب معرفة الأدواء والعلل حتـــى يهيأ لها العلاج الناجع، فتعود للدين قوته كما يعود للعود نضرته.

وفى قوله: (وامدد علينا ظل توفيقك) طلب استدامة التوفيق والتى عبر عنهـــا بالظل، فكما أن مد الظل يقى لفح الشمس ووهج الحر، فإن مد التوفيق يقى خيبة السعى ووهدة الهلكة. فالتوفيق المشهود كالظل الممدود، فالموفق يتفيأ ظلال أنعم الله ويستشعر برد اليقين. وتقديم الجار والمجرور فى (بك نعتزـــ بغيرك نـــذل) يفيد حصر العزة فى الاستعانة بالله وحده، وأن اللجوء إلى غيـــره ذل وإن كـــان ظاهره العز، وكذا تقديم المفعول فى (إياك نرجو) يفيد الاختصاص فهو المرجو حقا، ومن رجاه صدقا قطع اليأس ممن سواه (كما أنا من غيرك نيأس).

وإمعانا من المبتهل فى إثبات حقيقة اختصاص الله بالعبودية فإنه يحشد دلائل هذا الاختصاص كى يكون العابد على قناعة تامة بمن يدين له بالطاعة والولاء، فلله الملك الأزلى، والقدرة المطلقة، والعلم الكامل. ومن لا يحيط به وصف، ولا

يحده حد وجب له الإجلال والتعظيم، واستشعار الذل والتقصير. ولما كانت المخالفة مبعثها الجرأة، والعصيان يستوجب السخط، واتباع الهوى إعراض عن دعوة الحق، تبرأ المبتهل من أن يكون شيئا من هذا قد وقع على سبيل القصد والعمد، ولكنها البشرية المتلطخة بدم المعصية والمروية بماء المخالفة. (ولكن غلبت علينا جواذب الطينة التى عجنتنا بها، وبذور الفطرة التى أنبتتنا منها) واستعمال الجمع (جواذب) إشارة إلى كثرة المغريات وتنوع الشهوات التى ركبت فى النفس البشرية وامتزجت بها والتى دل عليها (وعجنتنا بها)، واستعمال الفعل (غلب) يرمز إلى هذا الصراع الدائم بين مطالب الجسد ومنازع الروح، وأن تغليب أحدهما على الآخر مرده إلى استجابة المرء إلى دواعى غريزته.

ولا يعطى المبتهل لنفسه مسوغا فى اقتراف السوء بحجة الجبلة الطينية، فقد أنعم الله عليه بالعقل الذى يميز بين الخبيث والطيب، ويرقى بروحه إلى معارج السمو (فلسنا ندعى حجة ولكن نسألك الرأفة) وهنا طلب تجاوز العدل التى تتم به المؤاخذة إلى الفضل الذى تتحقق به الرأفة، ومَن غير الخالق ينزل شآبيب رحمته، ويوالى لطائف مننه، ويجود بسحائب رحمته (إنك أهل ذلك وأنت على كل شيء قدير).

٩ـ ومن مناجاة السهروردى (ت ٥٦٣هـ): [١]

---

(١) هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه أبو النجيب السهروردى نسبة إلى سهرورد بلد بقرب زنجاف، يتصل نسبه بالصديق، ولد سنة تسعين وأربعمائة، ونشأ ببغداد وسمع على ابن نبهان، وكان إماما فى الشافعية وعلما فى الصوفية، توفى ببغداد ٥٦٣هـ.

الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية – (٣١/٤٨٣-٤٨٦).

"يا إلهى وإله جميع الموجودات من المعقولات والمحسوسات، يا واهب النفوس والعقول ومخترع ماهيات الأركان والأصول، يا واجب الوجود ويا جاعل القلوب والأرواح، ويا فاعل الصور والأشباح، ويا نور الأنوار ومدبر كل الدوار، أنت الأول الذى لا أول قبلك، وأنت الآخر الذى لا آخر بعدك، الملائكة عاجزون عن إدراك جلالك، والناس قاصرون عن معرفة كمال ذاتك. اللهم خلصنا من العلائق الدنية الجسمانية، ونجنا من العوائق الردية الظلمانية، أرسل على أرواحنا شوارق أنوارك، وأفض علينا بوارق آثارك، العقل قطرة من قطرات بحار ملكوتك، والنفس شعلة من شعلات نار جبروتك، ذاتك فياضة تفيض منها جواهر روحانية، لا متمكنة ولا متحيزة ولا متصلة ولا منفصلة، مبرأة عن الأحياز والأين، معراة عن الوصل والبين)[1].

تبدأ المناجاة بذكر صفة الألوهية ثم الإقرار بأعظم منة خص بها الإنسان حيث ألهمه الله نفسا تدرك وعقلا يميز، وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء،وأرواحهم نفخة من روح الله تعالى أحلها أشباحا قد أحكم خلقها وأحسن تصويرها، الأنوار قبسة من نوره، والأفلاك قيد تصريفه وتدبيره، أوليته غير مسبوقة، وأبديته سرمدية، الملأ الأعلى عاجزون عن الإحاطة بجلال عظمته، وفهوم الناس تتضاءل دون إدراك كمالات ذاته. والإنسان مزيج من روح وجسد فهو نفخة من روح الله تعالى وقبضة من تراب الأرض،وهو فى صراع دائم بين جواذب الأرض المادية وإشراقات الروح العلوية.

---

(١) الأدب الصوفى تاريخا وفنا صـ ١٦١ نقلا عن هياكل النور – السهروردى الإشراقى صـ ١٧– تح – محمد على أبو ريان – ط/ أولى.

والمبتهل يطلب الخلاص من ماديات الجسد والتى عبر عنها بالعلائق الدنيـــة، والخلاص لا يرجى إلا للفصل بين الممزوجين فكأن غرائز النفس وشهواتها قـــد امتزجت بنفس صاحبها حتى أحلته منزلة دنية، وهناك عوائق تقف حجر عثـــرة فى طريق السالكين يسألون الله النجاة منها لأنها تحول بينهم وبـــين محبـــوبهم، وتردى من يقع فيها وتحيطه بحجب ظلماتها.

ولما كانت التحلية بعد التخلية حيث تصبح الأرواح معدة لاستقبال فيوضـــات الأنوار دعا السالكون ربهم أن يرسل على أرواحهم شوارق أنواره، وأن يفـــيض عليهم بوارق آثاره. واستعمال الظلمة مع الجسم يناسب كثافة الحجـــب الناجمـــة عن اتباع الشهوات، كما أن استعمال النور والإشراق مناسب لمعـــارج الـــروح المتشوفة إلى سبحات الأنوار وخزائن الأسرار. ووصف العقل بـــالقطرة إشـــارة إلى الحياة التى تدب فى أوصاله، فالعقل يحيا به الإنسان كريما كـــالقطر يبعـــث النضرة فى النبات فيغدو مثمرا مزهرا، أما النفس فتوصف بالشعلة دلالة علـــى الانحدار وأنها مبعث الشرور والآثام،والنفس تردى صاحبها المتبع هواها وتهلكه كما تأتى النار على الأخضر واليابس. كما أن العقل بما منح من نعمـــة التفكيـــر يتناسب مع الملكوت،والنفس بما تأمر به من سوء يناسبها ذكر الجبروت.

"بذلك يبدو التصوف بابا مفتوحا على الإنسانية، حديقة مشرعة عامرة بأشذاء الرياحين والزهور تغرى بشميم عبير المحبة الإلهية والبذل الإنـــسانى، ومـــلء الأعماق النفسية بدبيب دافئ يفوح من طيب المقام بين يدى الأكـــوان، تتـــصعد النبرة فيه شيئا فشيئا إلى أجوار الآفاق العلا فتصل إلى العروة الوثقى حيث قاب

قوسين أو أدنى فلا ترى إلا من له السماوات وما تحت الثرى، تجأر إليه آناء الليل وأطراف النهار أن يقبل الملتقى ويرضى بالتجرد والتقرب مرتقى ". [١]

وتصور المبتهل عن الذات الإلهية ينبثق من نفى نظرية التجسيم حيث لا تمكن ولا تحيز ولا اتصال ولا انفصال، تقدست ذاته، وتنزهت عن مشابهة الأمثال صفاته، كما أنه ينفى فكرة (الحلول والاتحاد) التى طالما شغلت الأذهان.

غاية الأمر أن المبتهل ومن على شاكلته من العارفين "يرسلون انطباعاتهم من الملأ الأعلى والتى أدركوها ببصيرتهم الكاشفة وقد دربوا فيها وجداناتهم، وهمسوا فيها بخواطرهم القدسية، وحملوها نفثات أرواحهم الطاهرة، ونبضات قلوبهم الوالهة، تنفجر من تلك الخواطر شحنات وطاقات حيوية وجبارة يقوم لها الصوفى ويقعد كلما تناهت إلى سمعه كلمة أو كلمات منها، فتظل تلك الشحنات تقذف به من عالم الشهادة إلى عالم الشهود والمشاهدة، وتومض له ببرقها كلما خفت قوة الجذب إلى عالمه النورانى وهو يعيش بالنور وعلى النور وفى النور"[٢]

١٠ـ ومن مناجاة أبى الحسن الشاذلى (ت ٦٥٦هـ): [٣]

---

(١) حركة التصوف الإسلامي – محمد ياسر شرف – صـ ٣٠٠ – ط/ (الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦).

(٢) الأدب الصوفى تاريخا وفنا صـ ٢٢٨.

(٣) هو على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلى، وشاذلة قرية من إفريقية، الضرير الزاهد، نزيل أسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية، صحب الشيخ نجم الدين الأصفهانى وابن مشيش وغيرهما، وحج مرات، مات بصحراء عيذاب قاصدا الحج فدفن هناك فى ذى القعدة ٦٥٦ هـ.

الطبقات الكبرى ٢/٤٤٠، ونور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار الشبلنجى – ٢٦٨-٢٦٩-ط/الحلبى –الأخيرة – ١٣٩٧هـ ١٩٨٤م.

"إلهى ما أطعتك حتى رضيت، ولا عصيتك حتى قضيت، أطعتك بإرادتك ولك المنة على، وعصيتك بقدرتك ولك الحجة على، فبوجود حجتك وانقطاع حجتى إلا رحمتنى، وبفقرى إليك وغناك عنى إلا ما كفيتنى، اللهم إنى لم آت الذنب جرأة منى عليك، ولا استخفافا بحقك، ولكن جرى بذلك قلمك ونفذ به حكمك، ولا حول ولا قوة إلا بك، والعذر إليك، وأنت أرحم الراحمين. اللهم إن سمعى وبصرى ولسانى وقلبى وعقلى بيدك لم تملكنى من ذلك شيئا، فإذا قضيت بشيء فكن أنت وليى، واهدنى إلى أقوم سبيل يا خير من سئل، ويا أكرم من أعطى، يا رحمن الدنيا والآخرة، ارحم عبدا لا يملك دنيا ولا آخرة"(١)

يقف المبتهل فى حضرة مولاه خاشعا متبتلا، فما وفق إليه من طاعة فهو محض فضل الله، وما وقع فيه من معصية فبقضاء الله، وحتى لا يتعلل العبد بأنه لا دخل له فى اقتراف السيئات ــ ما دام الله قد كتبها عليه ــ فيحترز بقوله (ولك الحجة على) ليدل عل أنه وقع فى المعصية باختياره، وأن الله ما كان ليكتب على عبده الشقاء إلا لسابق علمه بأن عبده سيسلك سبيل الشيطان ويؤثر الشر بعدما هداه الله النجدين. أما فى مجال الطاعة فإنه يتبعها بقوله (ولك المنة على) ليدل على أن سبيل السعادة منة من الله لا فضل للعبد فيه.

ولما كان إلزام الله عبده حجته عليه، وانقطاع حجة العبد بين يدى مولاه، وكان ذلك مظنة المؤاخذة حيث المعاملة بالعدل، كان طلب المعاملة بالرحمة من مقتضيات الفضل الذى يطمع فيه الراجى ويلح عليه. وفقر المخلوق الضعيف،

---

(١) أبو الحسن الشاذلى الصوفى المجاهد –د/عبد الحليم محمود –١٦٨،١٦٩– ط/ دار الكتاب العربى – ١٩٦٧– سلسلة أعلام العرب (٦٩).

واستغناء الخالق القوى، يرجى معه حسن الثقة بالله. ومن كما ل أدب المذنب مع مولاه أن يقدم نسبة اقتراف الذنب إلى نفسه على الحديث عن تقدير الله فيما جرى به القلم فى علم غيب الله، ولكن هذا لا ينفى التبعة الملقاة على عاتق صاحب الذنب لأنه اتبع هواه ومن ثم فإنه يعتذر (والعذر إليك)، والمعتذر إليه كريم يعفو ويصفح، رحيم يتودد إلى عباده (وأنت أرحم الراحمين).

ثم يدلف العبد إلى ذكر وسائل الإدراك التى ينفذ الشيطان من خلالها حتى يوقع المرء فى الذنب. وترتيب هذه الوسائل على هذا النحو نسق بديع، فالسمع أول جارحة تستقبل الأصوات من العوالم المحيطة، يتلوه شق البصر، ثم يأتى النطق الذى تتم به المؤاخذة فى مرحلة النضج، ثم يكون القلب الذى ينعقد على ما يقر فيه، وأخيرا العقل الذى يعقل الأمور ويتحكم فيما يرد إليه من دواعى الخير ونوازع الشر.

وما دامت تلك الوسائل مملوكة لله فحقيق بها أن تكون مُسخرة فى طاعته، أما وقد حادت عن الجادة، وتنكبت طريق الرشاد، وارتكست فى حمأة الرذيلة، فإنه لا يخلصها مما تردت فيه إلا خالقها، ومن ثم كانت استعانة المبتهل بمولاه (فإذا قضيت بشيء فكن أنت وليى). وتنكير كلمة (شيء) يدل على العموم ــ أى كل شيء كبر أو صغر، عظم أو حقر ــ كما أن فيها تأدبا مع الله فلم يقل (بذنب أو معصية) وإن كان هذا بتقدير الله. ثم يختم المبتهل ابتهاله بطلب الهدى من خير مسئول وأكرم مأمول، والتذلل بطلب الرحمة ممن يملك كل شيء لمن لا يملك أدنى شيء.

ويلح الشاذلى على هذه المعانى فى مناجاة أخرى يقول فيها :

"اللهم إنا نتوسل بك إليك، اللهم إنى أقسم بك عليك، اللهم كما كنت دليلى عليك فكن شفيعى إليك، اللهم إن حسناتى من عطائك وسيئاتى من قضائك، فجد الله بما أعطيت على ما به قضيت حتى تمحو ذلك بذلك، لا لمن أطاعك فيما أطاعك فيه لك الشكر، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه له العذر، لأنك قلت وقولك الحق (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون). اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين"(١)

وكانت للشاذلى أحزاب منها حزب البر الذى يشتمل على ابتهالات وضراعات إذ يقول :

"اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك، فهنيئا لمن عرفك فرضى بقضائك، والويل لمن لم يعرفك، بل الويل ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك. اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عجزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك، فإنه قد ظهرت السعادة على من أحببت، وظهرت الشقاوة على من غيرك ملكه، فهب لنا من مواهب السعداء، واعصمنا من موارد الأشقياء. اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث لا نعلم بما لا نعلم، وقد أمرتنا ونهيتنا، والمدح والذم ألزمتنا، فأخو الصلاح من أصلحته، وأخو لفساد من أضللته، والسعيد حقا من أغنيته عن السؤال منك، والشقى حقا

(١) الصوفية فى إلهامهم ٣٢٤/٢.

من حرمته مع كثرة السؤال لك، فاغننا بفضلك عن سؤالنا منك، ولا تحرمنا من رحمتك مع كثرة سؤالنا لك إنك على كل شيء قدير"[١].

يبدأ المبتهل مناجاته بالثناء على الله بما هو أهله، ثم ربط السعادة بمعرفة الله وحسن الفهم عنه، لأن من عرفه فهم مراده وأيقن حكمته فى بلائه، فرضى بقضائه، كما ربط الشقاوة بمن أنكر وجوده وجهل مطلوبه، وأشد منه جهلا وأبأس حالا وأسوأ مآلا من علم الحقيقة ثم صدف عنها وتنكب الصراط المستقيم، وأُرى الحق ولم يتبعه فهذا قد غلبت عليه شقوته. ولما كان المقبلون على الله أعرف الخلق به فإنهم يفهمون حكمة الله فى خلقه ثم يرضون بقضائه، أما المعرضون عنه سبحانه فهم لا يرضون حكمه؛ لأنهم عطلوا منا فذا لإدراك.

وآثر التعبير بالجمع هنا (أحكام) دون المفرد دلالة على أن هؤلاء الغافلين ما استحقوا الويل إلا لكثرة ردهم حكم الله، فكلما رُدُّوا إلى حكم الله أعرضوا عنه، ويتوافق هذا مع مضاعفة العذاب الذى دل عليه العطف فى قوله (الويل ثم الويل)، وكذا دلالة الفعل (أقر) لأن الشأن فى المقر أن يستجيب لحكم من أذعن له، ثم يقرر المبتهل حقيقتين :

الأولى: أن الذل لله هو عين العز، وأكد هذا بأن المؤكدة وقد الداخلة على الماضى لإفادة التحقيق، كما أن إسناد التاء إلى الفعل يدل على أن الذل والعز من الله، ودفعا لتوهم اختصاص أحد بهذا الأمر.

والثانية: أن من وجد الله فقد ما عداه واستغنى عمن سواه، فماذا وجد من فقد الله؟ وماذا فقد من وجد الله؟ والمبتهل يقصد طائفة أنسوا بالله حتى استوحشوا كل شيء سواه "ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات

---

(١) أبو الحسن الشاذلى ص ١٨٦، ١٨٧.

وبواده الواردات، وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الرى، فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعانى، ووفاء منازلهم يوجب لهم الشرب، ودوام مواصلاتهم يقتضى لهم الرى، فصاحب الذوق متساكر، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الرى صاح، ومن قوى حبه تسرمد شربه، فإذا دامت تلك الصفة لم يورثه الشرب سكرا فكان صاحيا بالحق، فانيا عن كل حظ، لم يتأثر بما يرد عليه، ولا يتغير عما هو به، ومن صفا سره لم يتكدر عليه الشرب، ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبق بدونه " (١)

ولما كانت فهوم الخلق متنوعة فى تصور تحقيق العز فى دنيا الناس فإن التعبير بلفظ (كل) فيه دلالة على هذا التنوع، فإن أهل القرب يستنكرون كل عز يحول بينهم وبين محبوبهم، يسألونه تعويضا بفقد تصحبه أنوار المحبة "والتعبير عن الحب المادى الظاهر يختلف اختلافا بينا عن التعبير عن الحب بوصفه أعلى مظهر من مظاهر الإرادة الإنسانية والوجدان، وهنا يوجد المفهوم الحقيقى للحب عند الصوفية، كذلك التمرد من أجل امتلاك القدرة المادية تختلف تماما عن التمرد فى المفهوم الصوفى، ومحاولة الإنسان الخلاص بنفسه من قيوده الترابية وسجن الواقع المادى"(٢)

واقتران الوهب بالسعادة فيه دلالة على أن الله يمن على أصفيائه فيمنحهم جزيل عطائه، واقتران الورود بالشقاوة يشى بجرأة العبد على فعل ما يشقيه، وكثرة وروده على مواطن هلكته كما ترد الإبل العطاش موارد الماء، ثم يعترف المبتهل بتبرؤه من الحول والطول حيث العجز المطلق عن دفع الضر من أية

---

(١) الرسالة القشيرية – ص٤٢.

(٢) دراسات فى الأدب العربى الحديث –د/ محمد مصطفى هدارة ص٢٤٣ ــ ط/ دار العلوم العربية –الأولى ــ١٤١٠ هـ –١٩٩٠ م.

جهة. وإضافة الأخوة إلى الصلاح دليل الملازمة، وإضافة الأخوة إلى الفساد دليل على أن الإنسان قد ارتكس فى حمأة الرذيلة وتردى فى مراتع الهلكة.

وأمارة السعادة أن يفيض الله على عبده غنى يستحى معه أن يسأل، ويرضى عنه بحيث يعطيه قبل أن يسأل، وعلامة الشقاوة حرمان القلب من غنى حتى وإن ألح فى السؤال.

والمبتهل يريد أن يرتقى فى مقام القرب حتى يصير محبوبا ليس فقط محبا، فإنه إذا كان محبوبا أُعطى من غير سؤال، وإذا كان محبا فقد يسأل ولا يعطى، ومن ثم كان دعاؤه (فاغننا بفضلك عن سؤالنا منك) فإذا حال العمل دون الوصول إلى تلك المنزلة فلتسعه الرحمة التى تجيب السائل وتعطى المحروم وتكسب المعدوم وتغيث المكلوم.

١١ـ ومن مناجاة السيد أحمد البدوى (ت ٦٧٥هـ): [١]

"اللهم أنت خلقتنى فلا علم لى، ورزقتنى فلا حيلة لى، وإن حاسبتنى فلا حجة لى، وإن عاقبتنى فلا قوة لى، وإن غفرت لى فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة، اللهم إنى توسلت بك إليك ولا أحد أمره عليك، إن سألتنى عن ذنبى طلبت عفوك، اللهم إنك سميت نفسك اللطيف، ونبيك محمدا الشريف، وأنا عبدك الضعيف، كيف يخاف عبد ضعيف وهو بين لطيف وشريف، عصيتك بجهالتى

(١) هو أبو الفتيان الشريف العلوى السيد أحمد البدوى ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب، والمشهور أن سلفه تحول من الحجاز إلى بلاد المغرب، ثم خرج أبوه على بن إبراهيم من فأس (٦٠٣هـ) ومعه أولاده يريدون الحج فحج بهم (٦٠٧هـ) وكان عمر السيد أحمد البدوى آنذاك إحدى عشرة سنة، وأقام بمكة وعرف بالبدوى لكثرة ما كان يلتثم به، وجاء إلى طنطا إثر رؤية منامية، وظل بها إلى أن مات ٦٧٥هـ.
الطبقات الكبرى ٢-٣٩٤ ونور الأبصار ٢٦١.

وأنت حليم، وجئتك محتاجا وأنت كريم، فرج كربتى، وأقل عثرتى، واعصمنى من عدوى، بحرمة اسمك العظيم، ونور وجهك الكريم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"(١)

يستهل المبتهل المناجاة بالإقرار بالعجز، إذ لا يعلم الإنسان حقيقة خلقه، فإذا جهل أمر نفسه فهو لغيرها أشد جهلا ومن ثم كان نفى العلم أمرا طبعيا، ولما كان الرزق يتصور جلب الإنسان له لمباشرة أسبابه فقد نفى المبتهل مظنة الاعتقاد فى أن يكون للإنسان – بما قد يؤتى من فهم وقوة – قدرة ذاتيه على تحقيق النفع لنفسه، فهو أعجز ما يكون مهما احتال واحتاط.

ولما كانت المحاسبة تقتضى إقامة الحجة فقد تبرأ المبتهل من أن تكون لديه حجة يدفع بها عن نفسه إدانتها، ولما كان العقاب يحتمل وجود قوة دافعة له فقد تبرأ المبتهل من الحول والطول (فلا قوة لى)، وإن كان من الله الغفران فليس ذلك لعدم استحقاق العبد أن يؤاخذ، فما دامت هناك مغفرة لابد أن تكون هناك ذنوب قد وقعت، وإنما يكون الغفران لأن الله قد كتب على نفسه ذلك (فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة).

وترتيب الجمل على هذا النحو يوافق الأطوار التى يمر بها الإنسان، فالخلق أولا ثم الرزق ثم تأتى المحاسبة على الأعمال ويترتب عليها عقاب أو مغفرة، وفى تقديم العقاب على الغفران اعتراف بأحقية العبد بالمؤاخذة لكثرة ما بدر منه، أما الغفران فإنه محض فضل ممن يملك الفضل لأن الخلق والرزق وحدهما يطوقان عنق المخلوق بجميل لا يستطيع شكره مهما قدم من طاعات.

---

(١) العظة والاعتبار – آراء فى حياة السيد أحمد البدوى – الشيخ أحمد محمد حجاب ص ٢٠٨ – ط / دار المنار.

والمبتهل يمهد بهذا الإقرار لحتمية اللجوء إلى الله، فمن خلق ورزق وحاسب كان حقيقا بأن يُتوسل إليه لأنه وحده الآمر الذى لا يؤمر، فالمأمور رهن إشارة الآمر وطوع أمره (ولا أحد أمره عليك). والمحب الضعيف يرجو رحمة المحبوب القوى، والمتردى فى وهدة الذنوب يطلب عفو الغفور (إن سألتنى عن ذنبى طلبت عفوك). وهنا رجاء يكسوه خوف، ودلال بين العبد المخلوق والإله الخالق. وتبلغ الدقة فى العبارة منتهاها، فالذنب يُسأل عنه مرتكبه فلا يعير السائل جوابا لأنه لا حجة له، والعفو لا يُسأل عنه مالكه وإنما يُطلب منه فإما أن يجيب أو لا.

والمقر بالذنب يعلم أنه لا محالة مؤاخذ بما كسبت يداه فلا يطلب العدل وإنما يرجو الفضل الذى يكون به الصفح والتجاوز، وهذا ما تحققه كلمة (العفو)، وطالب العفو يستجدى مسبباته (رب لطيف ــ نبى شريف ــ عبد ضعيف) فلتتدارك صفة الجمال (اللطيف)، ولتشفع رحمة المرسَل (الشريف) فى رفع الحرج عن العبد المذنب الخاطئ (الضعيف)، ويستنكر الضعيف أن يذل ويخزى بين لطيف وشريف، كما أن من مسببات لطف الله بعبده وقوع المذنب فى المعصية عن جهالة.

"إن الجهل بالله سم مهلك، وإن معصية الله بمتابعة الهوى داؤه الممرض، وإن معرفة الله تعالى ترياقه المحى، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافى، لأنه لا سبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك ".(١)

(١) المنقذ من الضلال – الغزالى – ص ٩٥– ط/ مؤسسة ناصر الثقافية.

كما أن من مسببات لطف الله حلمه الذى يسبق غضبه، وشدة احتياج المخلـــوق، واستغناء الخالق. وبعد الإقرار بالعجز والثناء على الله يأتى الدعاء حيث يكـــون أرجى للقبول (فرج كربتى وأقل عثرتى).

ومن الأدعية المأثورة عنه (رحمه الله) قوله :

"اللهم افطم جوارحنا عن المخالفات الشرعية، وأنفسنا عن المألوفات العاديـــة، وقلوبنا عن الرعونات البشرية، وأسرارنا عن الكدورات الطبيعية، وأرواحنا عن التجارات الحسية، وعقولنا عن الخيالات الوهمية ".(١)

استعار فى ابتهاله الفطام ــ وهو يكون للرضيع ــ لأشياء فى النفس البشرية لعلاقة بين المستعار منه والمستعار له، فالجوارح إن لم تفطم عـــن المخالفـــات فإنها تستمرىء مباشرتها كالطفل الذى يهمل فإنه يشب علـــى حـــب الرضـــاع. ووقوع الجوارح فى المخالفات بسبب عدم ردعها شر مستطير وخطـــر دائـــم، فالترك داء والفطام دواء، والنفس إن لم تُـــفطم عن إلفها استحكمت فيها العـــادة وما ذاقت حلاوة العبادة، والقلب إن لم يفطم عن التحولات الذاتية عـــرض لـــه حجاب الغفلة وران عليه ظلام الجفوة. ودخيلة الإنسان إن لم تصدق مع بارئهـــا مازجها ما يعكر صفوها، والسر الذى يكون بين العبد وربـــه ــ ســـر الهدايـــة والتوفيق ــ يظل محفوظا من العلائق، والروح تستمد إشـــراقها مـــن العـــوالم السماوية، فتسمو حتى تسابق الذوات الملائكية، مرتفعة عن النزعـــات الماديـــة، مستشرفة آفاقا علوية، فتتخلص من كل ما يحول بينها وبين الترقى. والعقول إن لم تجنح عن الخيالات الوهمية وقعت فى شَرَك الحيـــرة فـــلا تهتـــدى ســـبيلا، وتخبطت فى ظلمات الشك فلا ترى يقينا.

---

(١) العظة والاعتبار ص٢٠٨.

١٢ـ ومن مناجاة ابن عطاء الله السكندرى (ت ٧٠٩ هـ):[١]

" إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى. إلهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولا فى جهلى. إلهى منى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك. إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى، أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى ؟ إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة على، وإن ظهرت المساوىء منى فبعدلك ولك الحجة على، كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت لى، وكيف أضام وأنت الناصر لى، أم كيف أخيب وأنت الحفى بى،ها أنا أتوسل بفقرى إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك، أم كيف أشكو إليك حالى وهو لا يخفى عليك، أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك،أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك، أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك. إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى. إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك. إلهى ما أرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك. إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء.إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك، وكلما آيستنى أوصافى أطعمتنى مننك. إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالا، ولا لذى حال حالا. إلهى ترددى فى الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك.إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى

---

(١) هو الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله السكندرى – تلميذ ياقوت العرش، وقبله الشيخ أبو العباس المرسى، كان ينفع الناس بإشاراته، ولكلامه حلاوة فى النفوس وجلالة، مات كهلا (٧٠٧هـ) وقبره بالقرافة. ومن أشهر مؤلفاته الحكم – لطائف المنن. (الطبقات الكبرى ٢ – ٤٧٣).

يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك. إلهى عميت عين لا تراك عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا. إلهى أخرجنى من ذل نفسى، وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول رمسي.بك استنصر فانصرنى، وعليك أتوكل فلا تكلنى، وإياك أسأل فلا تخيبنى،وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى، ولجنابك انتسب فلا تبعدنى، وبابك أقف فلا تطردنى. إلهى إن القضاء والقدر غلبنى، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى، فكن أنت النصير لى تنصرنى وتنصر بى، واغننى بفضلك حتى استغنى بك عن طلبك، أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبائك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذى فقد من وجدك، لقد خاب من رضى دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا. إلهى كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان،وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بَّدلْت عادة الامتنان. يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين، أنت الذكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين.إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك، واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك. إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك. إلهى قد دفعتنى العوالم إليك، وأوقفنى علمى بكرمك علىَّ. إلهى كيف أخيب وأنت أملى، أم كيف أهان وعليك متكلى".(١)

---

(١) تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس–أحمد بن عطاء الله السكندرى ص ٨٨ : ٩١ نشر دار جوامع الكلم ــ د. ت.

إن المبتهل الفقير يرى فى ذله وافتقاره إلى الغنى ــ جل فى عــلاه ــ اســتغناء عن كل ما سواه. ولم يشأ أن يقرر استغناء الخالق وفقر الخلق بأسلوب تقريرى، وإنما عمد إلى الاستفهام المصحوب بالنفى (فكيف لا أكون). وهو يعلــن عــن عجزه عن طريق التقابل بين صفات الضعف فى المخلوقات وصفات القدرة فــى الخالق، فالفقر والجهل واللؤم والضعف فى جانب المخلوق فى مقابلــة الغنــى والعلم والكرم واللطف فى جانب الخالق. وهو يريد أن يصل مــن خــلال هــذا الطرح إلى استدرار رحمة الله التى تسبق غضبه، وهو مقر بما وقع منــه ممــا يستوجب سخط الله عليه،وإن بدت منه المحاسن فبمحض فضل الله، وإن ظهرت المساوئ فبتقصيره حيث ألزم الحجة.

وتتوالى الاستفهامات المجازية متضمنة معنى النفى. نفى حدوث مــا يــشين المخلوق لليقين بكمال عظمة الخالق عن طريق حرف التحقيق آنا (قد توكلــت – قدوفدت)، وضمائر الفصل حينا (وأنت الناصر ــ وهى قد وفــدت ــ وهــو لا يخف)، وتقديم الجار والمجرور طورا (منك برز– بك قامت)، واســتعمال اســم الفاعل المحلى بأل تارة (الناصر ــ الحفى).

ويتعجب المبتهل من عظيم إحسان الله على الرغم من قبــيح صــنع العبــد، فالجهل يستوجب الغضب، ولطف الله بعبده المذنب دليل القرب، وتجــرؤ العبــد على مخالفة المعبود أمارة البعد (ما أقربك منى وما أبعدنى عنك). وقــدم قــرب الرب على بعد العبد للإشارة إلى عظيم امتنان الخالق على المخلوق، ولما كــان الإله رءوفا لا يعجل العقوبة على المجترئ كان ذلك داعية إلى أن يتعلق العبــد بجناب مولاه لا أن يحجب عنه ومن ثم كان الاستفهام الإنكــارى (فمــا الــذى يحجبنى عنك).

ويدل المبتهل على تردده بين الخوف والرجاء من خلال تلك المقابلة بين جملتين بأسلوب الشرط (كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك)، (وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى مننك)، وهنا ملحظ آخر أن المبتهل ينسب إلى نفسه السوء (لؤمى –أوصافى) على حين ينسب إلى الله كل خير (كرمك – مننك)، والعبارة الثانية أشار من خلالها إلى تعداد اقتراف نفسه السوء، وهذا يناسبه تكرار صدور العفو ممن يملك المؤاخذة، بل الإحسان إلى المسيء والذى دل عليه الجمع المضاف إلى كاف الخطاب (مننك) فليس أحد أحق بالمن من الله.

ثم يعلن المبتهل خضوع الكون لواجب الوجود مستنكرا عن طريق الاستفهام المجازى أن يستدل على الكامل بالناقص، فالله أظهر من أن يظهره مخلوق، فالحاضر القريب أظهر من أن يدل عليه دليل، والفهم عن الله يستلزم التوبة من غفوة الإعراض عنه ــ سبحانه ــ إذ كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار من لم يتب من غفواته، فإذا صحا القلب وتيقظ الحس فتح له باب فهم (دقائق الأسرار) فمن تنبه كشف عنه الغطاء حتى فهم (الدقائق).والتعبير بالأسرار يدل على أن هذا العبد المنفوح قد اطلع على ما خفى على غيره ممن ليس على شاكلته، كما يدل على أنه أصبح قريبا من محبوبه، فالمحبوب لا يخفى سره عمن أحب،بل يمنحه دقائق الأسرار. ومقتضى الحضور والقرب أن يستشعر العبد مراقبة الله له وإلا كان من الغافلين.

ويأتى التعبير بالعمى عن الغفلة دلالة على شدة الطمس، واستعمال لفظ (الصفقة) فى وصف المعاملة بين العبد وربه فيه حض على كمال الإقبال على الله، فالتجارة مع الله رابحة، والذين يحبونه يرجون تجارة لن تبور، والمعرضون عنه تجارتهم كاسدة. ولما كان وقوع الإنسان أسير نفسه يستوجب الذل فإن المبتهل يدعو ربه أن يخلصه من هذا القيد ليتحرر من إسار هوى

النفس إلى إيثار رضا المحبوب. ويأتى تقديم الجار والمجرور على الفعل فى جمل متوالية (بك ــ فى نفسك ــ عليك ــ ببابك- لجنابك) للدلالة على اختصاص الله وحده بتحقيق ما يصبو إليه الطالب، ومن صدق قصده تحقق مطلبه.

وتمثل تلك الابتهالات مراحل السلوك إلى الله بدءا من التخلص من أسر النفس، وتطهير القلب من أدناس الشرك، يتلو هذا عون الله عبده فى التغلب على نفسه، ثم يكون كمال التسليم فإذا سأل لا يخيب، وإذا رغب لا يمنع، ثم يحظى بشرف الانتساب، وإدامة قرع الباب. وفى رحلة السالك إلى ربه تعترضه عقبات كأداوات يأتى على قمتها وقوع المرء أسير الهوى،وقد عبر المبتهل عن إحكام قبضة الهوى بقوله (إن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى)، وبين الهوى والشهوة صلة وطيدة وميثاق غليظ، فمتبع الهوى منساق وراء شهوته. والتعبير بالجمع (وثائق) يدل على مدى تعلق الإنسان بالشهوات، وإغراقه فى اقتراف الملذات حيث لم تجد نفسه فكاكا من قيد شهواته حتى أصبح أسير هواه. والأسير بحاجة ملحة إلى من يفك غل قيده، ومن ثم جاء طلب النصر على هوى النفس (فكن أنت النصير)، وأن يحل محل اتباع الهوى الاستغناء بفضل المنعم (واغننى بفضلك حتى استغنى بك عن طلبى).

ويتطرق المبتهل إلى تجليات الله على عباده المقربين بالتعرف على أحوال القلب الذى هو محل نظر الله إلى عباده، فتشرق أنوار الملكوت فى قلوب أوليائه، وقلب المحب لا يتسع إلا لمحبوب واحد ومن ثم تزول الأغيار ويثبت القلب إذ يربط الله على قلوب أحبائه فيعقدون على حبه، ويأنسون به، ويستوحشون غيره، إذ هداهم وبين لهم معالم طريق الوصول إلى بابه، والانتساب إلى جنابه.

ومن خلال استفهام مجازى يقرر حقــيقة أن من وجد الله ما فقد شــيئا، وأن من فقد الله ما وجد شيئا (ماذا وجد من فقدك، وما الذى فقد من وجدك) إنه قمــة الوصول إلى مرحلة الفناء وهو "بطلان شعور المتصوف بكل ما حوله، وتتعطل حواسه الظاهرة فلا يدرك فى خارج نفسه شيئا،ثم يفنى الفناء نفسه ويبطل شعور المتصوف بأنه لا يدرك شيئا مما حوله". (١)

ثم يأتى فى مقابل الفناء البقاء "عندما يفقد المتصوف كل حس ويفقد كل حــس بفقدان ذلك الحس فقد فقد المخلوق وبقى الخالق، فنى الإنسان وبقى الله، بطلــت مفردات الوجود وتحققت ذات الوجود". (٢)

ثم يذكر المبتهل موجبات التعلق بالله وقطع العلائق بما سواه، (كيف يرجــى سواك وأنت ما قطعت الإحسان وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بــدلت عــادة الامتنان). وإذا كان الإحسان من الخلق غير موصول فمن الخالق غير مقطوع، وقد أكد على خصوصية مواصلة الإحسان ودوام الامتنان بضمير الفصل (أنت) ففيه إثبات حقيقى لتفرد الله سبحانه بهذا الفضل، ونفى ضمنى لمن عداه. وجعــل لأهل الأنس بالله حلاوة تدركها حاسة الذوق، والحلاوة والذوق ليسا حسيين وإنما هى نشوة النفس التى يطرب لها القلب لاستــشعار الأنــس بــالمحبوب، وشــأن المحب أن يشتغل بمحبوبه ويتخذ كل سبيل للتقرب إليه، وقد عبــر عــن هــذا المعنى بالتملق، وهو حين يكون مذموما بين الأنداد فإنه يكون محمودا من العابد للمعبود.

---

(١) دراسات فى التصوف الإسلامى د/خفاجى ٧١/٢.

(٢) السابق الصفحة ذاتها.

ويتوج الله أولياءه تاج عزه فتكون عزتهم مستمدة من عزة الله (فقاموا بعزته) فهى عزة الولاية لله لا عزة البشرية المنغمسة فى أوحال الشرور والآثام. ولما كان الثوب يحيط بلابسه ويستره ويلازمه فإن أهل الولاية قد تسربلوا بلباس العز حيث أحاطهم الله بعنايته، وأسبل عليهم ستره، وخلع عليهم لباس محبته، وأدام عليهم لطائف مننه. ثم يذكر المبتهل فى مناجاته خصيصة تفرد بها المعبود وهى كونه تعالى مذكورا قبل أن يوجد ذاكر، ومحسنا قبل أن يوجد مستحق للإحسان، وجوادا قبل أن يخلق طالب العطاء.وبدء كل جملة بضمير الخطاب (أنت) يدل على الاختصاص، ويتأكد الاختصاص بأل (أنت الذكر – أنت البادئ – أنت الجواد).

وينحو المبتهل منحى جديدا فى الدعاء إذ يرجو أن يكون مطلوبا بلا طالب (اطلبنى ــ اجذبنى) بمعنى أن يكون محل نظر الله حتى يهيأ للوقوف ببابه، فيتحقق له الوصول إلى رحابه،كما أن القيد فى الكلام (برحمتك ــ بمنتك) فيه دلالة على تبرؤ السالك من الحول والطول، فإن أمكنه الوصول وتحقق له الإقبال فبمحض فضل الله وفيض منته وسعة رحمته.

ويحلق المبتهل فى رحلة الوصول إلى الله بجناحى الخوف والرجاء، وقدم الرجاء لأن رحمة الله سبقت غضبه، فالرجاء موصول لا تقطعه المعصية، كما أن الخوف ملازم لا تذهب به الطاعة. وهذا السلوك يجعل العبد موصولا بالله إذ لا تؤيسه المعصية ولا تغره الطاعة، فرب معصية أورثت ذلا وانكسارا، ورب طاعة أعقبت عزا واستكبارا.

وهذا المعنى ماثل فى أذهانهم " فإن الأولياء والعلماء العاملين قد جلسوا مع الله على حقيقة التصديق، وعلى الصدق والتسليم لله والإخلاص والوفاء بالعهود،

وعلى مراقبة الأنفاس مع الله حتى سلموا قيادهم إليه وألقوا أنفسهم سلما بين يديه، وتركوا الانتصار لنفوسهم فى وقت من الأوقات حياء من ربوبيته لهم، واكتفاءا بقيوميته عليهم فقام لهم بما يقومون لأنفسهم بل أعظم، وكان تعالى هو المحارب عنهم لمن حاربهم،والغالب لمن غالبهم".(١)

ثم يختم ابتهاله مستنكرا(كيف أخيب وأنت أملى أو كيف أهان وعليك متكلى) وكأنى به يقرر أن مؤمل غير الله خائب المسعى، والمتوكل على غير خالقه عرضة لأن يهان ممن اعتمد عليه.

ومن عبارات ابن عطاء الله قوله :

"كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من غفواته".(٢)

فهو يرى أن الانشغال بالخلق يحجب عن الخالق حيث يكون القلب غير مهيأ لاستقبال واردات الإشراق العلوى لوجود تلك الظلمات الكثيفة بسبب انطباع صور الأكوان فى مرآته، أما القلب المشرق فهو الذى تنطبع تجليات المكون على صفحته. وقد عبر عن هذا المعنى بطريق الاستفهام الإنكارى. والمعنى الظاهر يخفى وراءه معنى باطنيا قصد إليه المبتهل وإن لم ينص عليه وهو أن

(١) الطبقات الكبرى ٥٢/١. والأولى أن يقال : وقد كانوا مع الله بدلاً من قوله : وقد جلسوا مع الله، التى وردت فى أول النص.

(٢) الصوفية فى إلهامهم ١٤٤/١.

من أشرق قلبه بنور التجليات الإلهية يكون فى مقابل من ران على قلبه كثـــرة تطلعه إلى الأكوان منشغلا بالنعمة عن المنعم حتى أظلمت نفسه.

"وما الإشراقة التى تبدد ظلم النفس إلا الوصال،هكذا صفة العشاق المدلهين، يطرقون باب حبيبهم بدون ملل، يطرقونه آنـــاء الليـــل وأطـــراف النهـــار،لا يتراجعون حتى يبلغوا أمنياتهم العذبة. وأمنياتهم هى اللقاء، هى الفناء فى ذات محبوبهم، ولطالما سفكوا نجى الدموع التى جعلوا منها أبحـــرا، ومـــن هـــادى الأرواح ملاحا ينقلهم من صفة إلى صفة، من بحر زاخر بالموبقات إلى بحـــر تطفو على سطحه المثاليات، هنا أى حين تتحقق أمنية اللقاء بعد هـــذا الـــشوق والوجد والهجر الطويل يشعرون برعشات علوية تنسيهم نفوســـهم، إنهـــم مـــع الحبيب وجها لوجه، لقد تملكهم الطرب وأخذوا يصيحون كالمشدوهين من شدة فرحهم ".(١)

ويستنكر المبتهل أن يصل السالك إلى ربه وهو أسير شهواته. وفى وصـــف المتبع شهواته بالمكبل إشارة إلى أنه يسير سيرا حثيثا حيث تكبلـــه الـــشهوات، وتقيده الأهواء وتعوقه النوازع. وعلى كثرة الشهوات تكون كثرة القيود. وعـــن طريق الاستفهام المجازى يستبعد المبتهل دخول حضرة الجناب الأقدس علـــى من لم يتطهر من جنابة غفلاته، فالدخول إلى الحضرة الإلهية يستلزم طهـــارة القلب والحس من أى سوء ران أو غفلة، فالغفلة تحول دون مقام القرب.

وكما أن الجنب لا يقرب الصلاة إلا إذا طهر جسده طهارة حسية فكذا الغافل قد حيل بينه وبين شرف الولوج إلى ساحة القرب إلا إذا تطهر قلبه من العلائق

(١) الأدب فى التراث الصوفى ص ٢٥٢.

والعوائق والحجب طهارة معنوية يخرج القلب معها داء الغفلة ويحل محله دواء الذكر والحضور.

١٣ـ ومن مناجاة على الخواص (ت ٩٥٣ هـ) : [١]

" اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك، ونالته يدى بفضل نعمتك،وانبسطت إليه بسعة رزقك، واحتجبت فيه عن الناس بسترك، واتكلت فيه على أناتك وحلمك، وعوّلت فيه على كريم عفوك،اللهم إنى أعوذ بك أن أقول قولا حقا فيه رضاك التمس به أحدا سواك، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشيننى، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك،وأعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد بما علمتنى منى".[٢]

تبدأ المناجاة بطلب الغفران وهذا المطلب مقرون بالإقرار مغلف بالاعتذار، وقد لبس صاحبه ثوب الحياء إذ استعان بالنعمة على الجرأة على المنعم، فالبدن عارية والعافية منحة،وكان الأولى أن تُشكر النعمة ببذل الطاعة، لا أن تُكفر باقتراف الذنب. ومن تمام كمالات المنعم ألا يمنع النعمة عمن عصى.

ويتعدد طلب المغفرة بتعدد وقوع الذنب، فالاستغفار من بطش اليد، وخص اليد دون بقية الجوارح لأنها مظهر القوة وسبب القدرة، والاستغفار من الائتناس بالذنب الذى استعان عليه معترفه بأنعم الله. وتبلغ الحسرة مداها فى نفس المبتهل من خلال عرض هذين الحالين: حال المخلوق المتمادى فى غيه، وحال

---

(١) هو الشيخ على الخواص البرلسى، كان أميا لا يكتب ولا يقرأ، وكان يتكلم على معارف القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاما تحير فيه العلماء، ولقب بالخواص لأنه كان يضفر الخوص (ت ٩٥٣هـ) ودفن بزاوية خارج الخانقاه السريا قوسية. (الطبقات ٧٥٦/٢).

(٢) الأدب فى التراث الصوفى ص ٦٧.

الخالق المتفضل بمنه وكرمه وطوله، ثم يأتى الاستغفار من عدم المراقبة لله حيث إن المذنب لم يأت الذنب إلا لغفلته فهو يخشى الناس والله أحق أن يخشاه، وتقييد الاحتجاب بستر الله دلالة على رحمة الله الذى لو شاء لأظهر المكنون وكشف المستور، فالاحتجاب لفعل الذنب معصية، والستر نعمة، ومن ثم يتعاظم إحساس المذنب بقبيح فعله مع عظيم امتنان الله عليه بإسبال ستره.

ثم يأتى الاستغفار من ذنب جر إليه اعتماد المذنب على حلم الله فى عدم معاجلة العقوبة،والتعبير عن وقوع الذنب بالفعل الماضى (قوى ــ نال ــ بسط ــ احتجب ــ اتكل ــ عوّل) دلالة على تحقق الوقوع، وصريح اعتراف بمقارفة الذنب. أما الجزاء من المنعم بالتفضل بالستر وعدم المؤاخذة فله موجباته، فمن منح العفو، وأدام النعمة، ووسع فى الرزق، وسبق حلمه غضبه،وامتن بالإحسان فليس بمستنكر عليه أن يقيل العثرات، ويغفر الزلات، ويصفح عن الهنات، ويتجاوز عن الهفوات.

إن أخوف ما يخاف السالكون إلى الله أن تشوب أعمالهم شائبة شرك، ومن ثم فإنهم يستعيذون من كل ما يؤدى بهم إلى هذا المزلق الشائك والمنعطف الخطير؛ من قول حق يرضى الله لكن شابه مراعاة الخلق (اللهم إنى أعوذ بك أن أقول قولا حقا فيه رضاك التمس به أحدا سواك) استعاذة من الوقوع فيما هو أخفى من دبيب النمل، والتنكير فى قوله (أحدا) دال على عموم التبرؤ من السوى.

ولا يزال المبتهل منتبها إلى مسالك النفس الأمارة بالسوء التى تحسن القبيح فيستعيذ بالله من مخالفة المظهر للمخبر، وهنا يلمح إلى قضية الصدق فى التوجه إلى الله عن طريق بيان مآل من يرائى الناس، فكل تزين للناس شين،

ومن جعل همه مراقبة الخلق كانت عاقبته الذل،حيث يستوجب سخط الله عليه، ويظهر ذلك للعيان، ويفتضح أمره على رءوس الأشهاد (وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك).

ويختم المبتهل مناجاته بالإشارة إلى أخطر ما يقع فيه العلماء الذين ينتفع الناس بعلمهم بينما هم أقل الناس انتفاعا بما علموا، فيسعد الناس بعلمهم، ويشقون هم بعدم فعلهم. ولما كان حاملو العلم لا يسلمون من نزغات الشيطان، فيغترون بعلمهم أو يتكبرون بهداية الخلق على أيديهم تبرأ المبتهل من نسبة العلم إلى نفسه وإنما عزاه إلى خالقه فقال (بما علمتنى) سدا لمسالك الشيطان، فالعلم منحة إلهية. "إن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ".[١]

١٤ـ ومن مناجاة جلال الدين الرومى (٦٧٢ هـ):[٢]

"يامن هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحزن، يا من فيه غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز،يا من نحوه أولى وجهى فى حياتى ووجودى، يا من هو أنسى وفرحى وسرورى، لو أنى وهبت ملكا لا يبلى، أو أن كنزا خفيا فتح لى يحوى كل ما فى الوجود لسجدت لك روحى، ووضعت وجهى فى الثرى

(١) المنقذ من الضلال ص ٤٩.

(٢) هو محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخى القونوى (نسبة إلى قونية) ولد فى بلخ بفارس، وانتقل مع أبيه إلى بغداد فترعرع بها فى المدرسة المستنصرية ولم تطل إقامته، فإن أباه قد قام برحلة واسعة، ومكث فى بعض البلدان مددا طويلة وهو معه ثم استقر فى قونية حتى توفى بها سنة ٦٧٢هـ ومن أشهر كتبه (المثنوى) وقد نظمه بالفارسية. (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ٢٢/٥٣٣-٥٣٤)

وصحت قائلا ليس لى مراد غير حبك، كل شيء يزول ويفنى ويذهب إلى العدم،ويبقى نور الحب خالدا سرمديا).[1]

تبدأ المناجاة بتلك النداءات المتوالية الصاعدة من قلب مكلوم يجد فى مناجاة محبوبه عزاء نفسه ساعة يحل بها غم أو ينزل بها كرب أو يلم بها حزن، وكيف تغتم نفس آنست من مولاها قربا، أو يحزن قلب لمس من خالقه حبا، وذكر الضمير (هو) عقب النداء إشارة إلى أنه وحده ــ سبحانه ــ فارج الهم وكاشف الكرب.

ويستشعر المبتهل إشراقات روحية وإمدادات علوية تملك عليه وجدانه حتى ينسى معها مرارة الفقر ومضض العوز، وحين تلم به فاقة أو تعوزه الحاجة، فالفقر والعوز غصة فى الحلق يجد الفقير والمحتاج مرارتهما وأوصابهما، لكن الغنى الروحى يعلو الفقر المادى، بل كلما كان تقبل الفقر بل استعذابه كان السمو الإشراقى. وفى تقديم المفعول فيه (نحوه) على الفعل (أولى) دلالة على اختصاص المعبود بالقصد فى كل الأمور، وقد أكد المبتهل هذا المعنى بقوله (فى حياتى ووجودى) لإفادة الاستغراق.

ثم يأتى نداء مصحوب بضمير(يا من هو أنسى) ليدل على أن كل أنس بغير الله وحشة " والأنس سرور القلب بشهود جمال الحبيب من غير استشعار رقيب بل مع الغفلة عن الماضى والمستقبل، وهذه الحال توجب انتعاش المحب وفرحه بطيب عيشه بصفاء وقته، فإنه بما فيه من البهجة والطرب الروحانى يخيل إليه أن جميع الكائنات تشاركه فى صفاء وقته وطيب حاله، فهو يشاهد حالته تلك فى تفتح كمام النوار، وتبلج ثغور الأزهار، وتوريد خدود

(١) الصوفية فى إلهامهم ١/١٤٥.

النعـــــمان، وانعطاف قدود البان، ولطافة مر النسيم، وطلاقـــة مـــرأى وجـــه النســـيم "[١]

والمناجى لا يرضى عن محبوبه بدلا، ولا يبغى عنه حولا، فلـــو أنـــه ملـــك الدنيا وفتح له من الخزائن ما تقر به عينه لآثر لذة الوصل التـــى مـــن آثارهـــا سجود الروح الذى هو أسمى مقامات القرب وهو لا يكون إلا لله. وقد أفاد هـــذا الاختصاص تقديم الجار والمجرور (لك).

والمبتهل يأبى أن تشغله المغريات عن مطلوبة الأسمى ومقـــصوده الأعلـــى، فيتخذ من نفى إرادة ما سواه سبيلا إلى إثـــبات تفرده ــ سبحانه ــ بالتوجه إليه، والائتناس به "ومن علامات صاحب الأنس أن تستوى عنـــده الخلـــوة والمـــلأ، والغربة والوطن، فلا يجد وحشة مع محبوبه، إذ هو يشاهده فى جميع الكائنـــات، فيرى الوجود كله مواضع آثاره، ومعالم أخبـــاره، ومواقـــع أنـــواره، ومعـــادن أسراره".[٢]

وفى ختام المناجاة يجعل المبتهل للحب نورا سرمديا يبدد حالـــك الظلمـــات، وهو باق لا يفنى لأنه متعلق بمن لا تعتريه الأغيار.

---

(١) مشارق أنوار القلوب ص٧٠.

(٢) كشف المحجوب – الهجويرى – تح د/ إسعاد عبـــدالهادى قنـــديل ٢٩٣/١–ط/المجلـــس الأعلى للشؤن الإسلامية ــ ١٤٢٤هـــ ــ ٢٠٠٠م.

الخاتمة

بعد تلك الرحلة الروحية والجولة الماتعة فى ابتهالات ذوى السمو الاشراقى، وبعد التحليق فى أجواء تلك الضراعات السامية، تستروح النفس أعطر النسمات، وتسعد فى رحاب تلك الإشراقات، فتتفيأ ظلال دوحة المناجاة، مستأنسة بمن هاموا فى حضرة مولاهم، يبثون أشواقهم، ويعربون عن مكنون ضمائرهم.

وقد استبان من خلال نماذج الابتهالات سمو العاطفة وإشراقها، فهى فى أقوى حالات صدقها، وأعلى درجات شفافيتها، فالمتضرَع إليه – جل وعلا– ليس بحاجة إلى ضراعة المبتهل؛ لأنه ــ سبحانه ــ مستغن عن ثناء خلقه، فقد أثنى على نفسه، فضلا عن أنه يعلم السر وأخفى، كما أن الثناء عليه لا يزيده علوا بل يزيد من قدر المثنى الذى يحظى بشرف الخطاب، وينعم بلذة المناجاة. وعلى قدر قرب المبتهل يكون الفتح والإلهام، حيث تجرى على لسان المناجى عبارات يعلوها البهاء، ويلبس صاحبها خلعة الأولياء، لأنه استحيا من الله حق الحياء.

إن من يسلك هذا المسلك الروحى لابد أنه اجتاز عقبات كأداوات، من نفس أمارة بالسوء، وشيطان يتربص به الدوائر، وهوى يورد موارد الهلكة، فلما تمت مقاومة تلك الأخطار، صفا القلب من كدوراته، وأصبح مهيأ لاستقبال فيوضات محبوبه الأعلى، وتحرق شوقا إلى مناجاته، فذاق حلاوة الوصال، وعشق القرب من مولاه، وأنس بمعيته فلم يرض به بدلا، ولم يبغ عنه حولا.

ويمكن استخلاص بعض سمات أدب الابتهال فى النقاط الآتية :

• يعد أدب الابتهال لونا من ألوان النثر الصوفى الذى تتعدد فنونه بين الحكم والوصايا والأدعية والأحزاب والأوراد، والمبتهل مقر بعجزه بين يدى خالقه، فيفيض الله عليه من أسراره، فينطق بعبارات تشع نوراً وضياء، فتأسر العقول بسحرها، وتجذب القلوب بإيقاعها؛ إذ إنها منتقاة بعناية، محكمة الأسلوب، جزلة الألفاظ، رصينة المعانى.

• يعتبر الرمز سمة غالبة فى الأدب الصوفى، وقد اكتنف جل عبارات المبتهلين بعض الإبهام والغموض بحيث يحتاج القارئ إلى قراءات متعددة للنص فى محاولة للوقوف على دلالته وكشف مراميه، ولعل السر فى هذا- كما يذكر المعنيون بدراسة الأدب الصوفى- أن أصحاب هذا الاتجاه إنما قصدوا أن تستبهم ألفاظهم، وتستغلق عباراتهم على الأفهام غيرة منهم أن تشيع فى غير أهلها؛ إذ إنها فتح من الله لخاصته الذين أودعهم سر محبته، فمعانيهم النابعة من أذواقهم الخاصة لا يدركها إلا من كان على شاكلتهم.

• تعتمد التجربة الشعورية لدى المبتهلين من أعلام النثر الصوفى على الذوق والاستبطان الذاتى القائم على شفافية الروح، ونقاء السريرة، وكشف البصيرة. والعقل عندهم قاصر عن إدراك الحقائق، واستشراف الآفاق العلوية. وهم فى نزعاتهم الوجدانية متأثرون بالأساليب القرآنية التى طالما عايشوا مفرداتها، وكذا العبارات النبوية التى أشربوا حب صاحبها (عليه الصلاة والسلام). على أن بعض عبارات المبتهلين قد تضمنت حكما فلسفية لتعكس بذلك تأثر المبتهل بالثقافات الأخرى.

وأخيرا فإن من العقوق للأدب أن يظل فن الابتهالات حبيس المؤلفات، أو رهين أضابير المصنفات، وأن يزوى بعيدا عن ميدان الدراسات الأدبية، وأن يصبح بمعزل ومنأى عن قاعات البحث فيتعرض للإغفال أو الإهمال، أو يغدو طى النسيان.

وإن كان من توصية فى ختام هذا البحث فإنها تتضمن دعوة المعنيين بتربية النشء إلى إخراج أمثال تلك النصوص إلى حيز النور، وجعلها ضمن مناهج الدراسات الأدبية، فإن فيها سموا بالنفس إلى معارج الجمال، وارتقاء بالروح إلى مراقى الكمال.

أسأل الله لهذا البحث التوفيق ولصاحبه القبول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

*** - القرآن الكريم.**

١- أبو الحسن الشاذلى –الصوفى المجاهد- د/عبد الحليم محمود - ط/ دار الكتاب العربى ١٩٦٧ - سلسلة أعلام العرب (٦٩).

٢- الأدب الصوفى تاريخا وفنا - د/ عبدا لوارث عبد المنعم الحداد - ط/ مطبعة السعادة. الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٣- الأدب فى التراث الصوفى - د/ محمد عبد المنعم خفاجى - ط/ مكتبة غريب.

٤- أساس البلاغة - الزمخشرى - ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة الذخائر (٩٥).

٥- البيان النبوى - د/ محمد رجب البيومى- ط/ دار الوفاء - الأولى - ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٦- تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس- أحمد بن عطاء الله السكندرى - نشر دار جوامع الكلم - د. ت.

٧- التصوف الإسلامى- طه عبد الباقى سرور - ط/دار نهضة مصر.

٨- حركة التصوف الإسلامي - محمد ياسر شرف- ط/الهيئة العامة للكتاب - ١٩٨٦م.

٩- دراسات فى الأدب العربى الحديث- د/ محمد مصطفى هدارة - ط/دار العلوم العربية - الأولى ١٤١٠هـ -١٩٨٠م.

١٠- دراسات فى التصوف الاسلامى- ظلاله فى الأدب العربى- د/ محمد عبد المنعم خفاجى - نشر مكتبة القاهرة - دار الطباعة المحمدية.

١١- الرسالة القشيرية- القشيرى- ط/الحلبى- الثانية -١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

١٢- الصوفية فى إلهامهم - حسن كامل الملطاوى- ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٣- الطبقات الكبرى - عبد الوهاب الشعرانى- تح/ عبد الرحمن حسن محمود - نشر مكتبة الآداب - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١٤- العالم العابد العارف بالله ذو النون المصرى - د / عبد الحليم محمود - ط/دار الرشاد - الثانية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤ م.

١٥- العظة والاعتبار - آراء فى حياة السيد أحمد البدوى - الشيخ أحمد محمد حجاب- ط/ دار المنار.

١٦- فن القول - أمين الخولى - ط/ دار الكتب المصرية- ١٩٩٦م.

١٧- كشف المحجوب- الهجويرى- تح / د. اسعاد عبد الهادى قنديل ط/المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٢م.

١٨- مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب - ابن الدباغ - تح / هـ ريتر - ط/دار صادر.

١٩- المقدمة - ابن خلدون- تح / د.على عبد الواحد وافى- ط/ الهيئة العامة للكتاب-٢٠٠٦م.

٢٠- المنقذ من الضلال - الغزالى (أبو حامد) ط/ مؤسسة ناصر الثقافية.

٢١- الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية- د/ فاطمة محجوب- ط/دار الغد العربى.

٢٢- نهج البلاغة - شرح الشيخ محمد عبده- ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة -الذخائر (١٢٨-١٢٩) ٢٠٠٤ م.

٢٣- نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار- الشبلنجى - ط/ الحلبى - الأخيرة -١٣٩٧ هـ - ١٩٤٨م.

٢٤- الهوامل والشوامل - التوحيدى - تح / أحمد أمين، السيد صقر- ط/الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة الذخائر (٦٨).

٢٥- الولاء والولاء المجاور بين التصوف والشعر - د/ عبد الحكم العلامى ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة كتابات نقدية شهرية (١٢٣) مارس ٢٠٠٣ م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة
المقدمة	١٥٥
تمهيد	١٥٧
إطلالة على أدب الابتهال.	١٥٧
نصوص من الابتهالات.. عرض وتحليل.	١٦٢
١- فمن ابتهالاته (ﷺ) فيما يرويه عبد الله بن جعفر.	١٦٢
٢- أما الإمام على بن أبى طالب (كرم الله وجهه).	١٦٣
٣- فإذا انتقلنا إلى مبتهل آخر هو الإمام جعفـــــر الصـــــادق (رضي الله عنه)	١٦٥
٤- ومن ابتهالات ذى النون المصرى (ت٢٤٥هـــ).	١٦٩
٥- ومن مناجاة يحيى بن معين الرازى (ت٢٥٨هـــ).	١٧٣
٦- ومن ابتهالات معروف الكرخى (ت٢٠٠هـــ).	١٧٦
٧ ــ ومن ابتهالات الإمام الجنيد(ت ٢٩٧هـــ).	١٧٨
ومن ضراعات الإمام الجنيد (رضي الله عنه).	١٨٠
٨- ومن ضراعات أبى حيان التوحيدى (٤٠٠هـــ).	١٨١

٩- ومن مناجاة السهروردى (ت ٥٦٣هـ).	١٨٥
١٠- ومن مناجاة أبى الحسن الشاذلى (ت ٦٥٦هـ).	١٨٨
١١- ومن مناجاة السيد أحمد البدوى (ت٦٧٥هـ).	١٩٤
١٢- ومن مناجاة ابن عطاء الله السكندرى (ت ٧٠٩ هـ).	١٩٨
ومن عبارات ابن عطاء الله.	٢٠٥
١٣- ومن مناجاة على الخواص (ت ٩٥٣هـ).	٢٠٧
١٤- ومن مناجاة جلال الدين الرومى (٦٧٢ هـ).	٢٠٩
الخـاتمـة	٢١٢
المصادر والمراجع	٢١٥
فهرس الموضوعات	٢١٨